S A Q R A B U F A K H R

حوارات
INTERVIEWS

صقر أبو فخر

الهرطوقيّ الحكيم



حوار مع كمال الصليبي



حوارات
INTERVIEWS

صقر أبو فخر

الهرطوقيّ الحكيم

(حوار مع كمال الصليبي)



الهرطوقيّ الحكيم: حوار مع كمال الصليبي / حوارات
صقر أبو فخر / مؤلّف
الطبعة الأولى، 2012



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :11-5460 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب: 9157، عمّان 11191 ـ الأردنّ
هاتف 5605431 6 00962 / 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
محمد سيف ® عمّان ☎ 95297109 7 00962
خطوط الغلاف: زهير أبو شايب
التنضيدّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت ، لبنان

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنيّة في المملكة الأردنيّة الهاشميّة: 29/ 1/ 2012
ISBN 978-614-419-130-9

المحتويات

تقديم

ليس مؤرخاً يتنزه بل مفكر يغيِّر

كمال الصليبي أحد أبرز المؤرخين العرب وأكثرهم ألمعية وتألقاً . قوّض ، بجدارة علمية ، المسلمات العتيقة الرابضة على رؤوسنا منذ ألفي عام على الأقل ، وبلبل معارفنا القديمة المستقرة في تلافيف أدمغتنا كثعابين هندية نائمة ، حين صاغ نظرية متماسكة برهن فيها أن أحداث التوراة وقعت في جنوب شبه الجزيرة العربية لا في فلسطين . وهذه النظرية المتينة والخطيرة لم يتجرأ أحد ، حتى الآن ، على نقضها علمياً ، فاستحق أن تقوم عليه قيامة العالم القديم كله ، بكهنته وشياطينه . وقد هاجمه هؤلاء ، وحاولوا أن يصيبوه بسهامهم ونبالهم المسمومة . كان قليل الكلام ، لكنه مثير للزوابع . وثلاثة من كتبه على الأقل أطلقت عاصفة من النقاش والسجال لم ينتهِ حتى اليوم هي :

١ـ «منطلق تاريخ لبنان» (١٩٧٩) الذي تخطى فيه ما ورد في كتابه «تاريخ لبنان الحديث» ، وخالف الحكاية التقليدية المتهافتة عن تاريخ لبنان الممتد ستة آلاف سنة إلى الخلف .

٢ـ «التوراة جاءت من جزيرة العرب» (١٩٨٥) الذي نقض فيه الرواية الدينية الشائعة عن تاريخ اليهود في فلسطين .

٣ـ «البحث عن يسوع» (١٩٩٩) الذي خلخل القصة الراسخة عن ولادة المسيح في بيت لحم وظهوره في الناصرة ثم في القدس .

وتوصل إلى أن ثلاثة أشخاص كانوا يكنون بـ«المسيح» : عيسى بن مريم ، ويسوع المتحدر من آل داود المطالب بعرش جده ؛ وهذا ولد في وادي جليل في منطقة الطائف وصلب في القدس ، وإله العيس في الحجاز ، أي إله الخصوبة (كلمة «العيس» تعني بالعربية القديمة «ماء الفحل») . وأكد أن مريم اسم خالة المسيح وليس اسم أمه . وعن الطبري أن قبر عيسى بن مريم كان موجوداً حتى القرنين الأولين من ظهور الإسلام على رأس جبل جمناء جنوب يثرب .

لا أجازف بالقول ، على الإطلاق ، إن كمال الصليبي لم يكن مجرد مؤرخ مهم ، بل هو مفكر ذو قامة علمية باسقة . هناك فكر يتنزه ، وهناك فكر يغيِّر . وكمال الصليبي غير أفكارنا جذرياً ، حين جعلنا ، منذ صدور كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» في سنة ١٩٨٥ نفكر بطريقة مختلفة ، أي أننا أصبحنا ، بعد قراءة هذا الكتاب التأسيسي ، غير ما كنا عليه قبل قراءته . وهذا ما تفعله ، من غير شك ، الأفكار الكبرى .

أراد كمال الصليبي تصحيح ما هو مستقر في الأذهان كاستقرار أهرامات مصر فوق هضبة الجيزة ، فصحّح تاريخ لبنان المملوء بالخرافات والأضاليل . وصحّح تاريخ بني إسرائيل واليهودية ، و«شقلب» أفكارنا المستقرة منذ مئات السنين . وكان دائماً يريد أن يصحح ما علق به هو نفسه من تأويلات سياسية بعيدة عنه تماماً ، فشدد على تأكيد انتمائه إلى العرب ، وكان يصرّ على عدم القول : هذا لبناني وهذا سوري وهذا فلسطيني وهذا عراقي ، بل كان يقول : «هذه بلادنا» . وكمال الصليبي ، الهرطوقي في نظر الكنيسة ، كانت اللحظات الأحب إليه أن

يجلس في الجامع الأموي بدمشق ، ويسند رأسه إلى أحد الأعمدة الرومانية ، وأمامه ضريح يوحنا المعمدان وجرن العمادة ، ويغرق في التأمل .

البدايات

في عام ١٩٧٧ نشر العلامة الشيخ حمد الجاسر «المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية» (اشترك في التأليف عدد من المؤلفين منهم حمد العقيلي وعبد الله بن خميس وعلي بن صالح الزهراني) . وعندما اطلع كمال الصليبي على هذا المعجم اكتشف أن معظم الأسماء التوراتية موجودة في منطقة يبلغ طولها نحو ٦٠٠ كلم وعرضها نحو ٢٠٠ كلم تدعى عسير أو بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن . واستناداً إلى ذلك شرع في دراسة التوراة مجدداً ، فأهمل الحروف الصوتية الموجودة حالياً في التوراة ، واجتهد في فهم المقصود من النصوص كما وردت بالأحرف الساكنة ، وأدى ذلك إلى فهم جديد لمقاطع «العهد القديم» ، وقارن ذلك بأسماء الأماكن التاريخية والحالية القائمة في بلاد عسير التي وردت لدى الجغرافيين العرب القدامى أمثال الحسن الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب» ، وياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» ، وعاتق بن غيث البلادي في كتابيه «معجم معالم الحجاز» و«معجم قبائل الحجاز» ، وحمد الجاسر في كتابيه «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» ، و«في سراة غامد وزهران» ، واستنتج أن بلاد السراة وجنوب الحجاز هي ميدان تاريخ بني إسرائيل ، وهناك أنشأ داود وسليمان «مملكتهما» ، وهناك ينبغي البحث عن أصول اليهودية والمسيحية ، أي أن أحداث العهد القديم والجديد لم

تقع في فلسطين ، بل في جنوب غرب الجزيرة العربية ، وقدم في هذا الإطار شواهد كثيرة شبه حاسمة . وعلى سبيل المثال ذكر أن «مصرايم» الواردة في التوراة ليست مصر الإفريقية بل هي قرية المصرمة في عسير ، و«تهدم» هي الآن تهامة ، و«أرض يهوذا» ، هي وهادة ، و«شمرون» هي شمران في بلاد عسير ، و«حورب» هي حارب الحالية . أما «الفرات» فهو وادي أضم إلى الجنوب الغربي من الطائف . وفي هذا الوادي ثلاث قرى ، اثنتان تدعيان فرات ، وواحدة تدعى فرت . وكذلك «يردن» «التوراتية فهي تدعى ريدان ، و«جبل نبو» هو الآن مرتفع قرب قرية نباة ، تقابله قرية وراخ التي هي «يرحو» التوراتية المترجمة إلى أريحا . . . وهكذا .

أطلقت نظرية كمال الصليبي هذه ، والتي صاغها في كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» وفي كتابين مساندين هما : «خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل» ، و«حروب داود» ، موجة من السجال العلمي ، وكانت محصلة ذلك كله أن هذه النظرية صمدت ، بقوة ، أمام نزعة التحطيم والنبذ التي مال إليها كثير من البحاثة والمؤرخين ، وكرست نفسها علامة وضاءة في ليل الفكر العربي الراكد ، وبات كمال الصليبي واحداً من الأعلام النادرين للفكر العربي التاريخي الحديث .

«العنحلي» المهاجر

عائلة الصليبي أصلها من قرية عين حليا الواقعة بالقرب من بلدة سرغايا في سورية اليوم . وهذه القرية غريبة عجيبة ، وقلما يوجد لها مثيل في تاريخ لبنان غير بلدة إزرع في حوران . فمن إزرع وجوارها

جاءت معظم عائلات مرجعيون وزحلة والأشرفية في بيروت أمثال عائلات أبو خاطر وعطية وطراد وعازار وعقل (ومنهم سعيد عقل) ، وحبيش وحردان وجبارة وإدة وبخعازي وزيدان (ومنهم جرجي زيدان) ، وواكيم وصفير (ومنهم البطريرك بطرس صفير) ، ونعيمة (ومنهم ميخائيل نعيمة) ، ونوفل وهزيم والمعلوف (ومنهم المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف) ، ومفرج وغرة وغلمية ورياشي وحريق وغيرها كثير جداً . ومن عين حليا ، التي تنازع أهلها وتقاتلوا ثم رحلوا عنها ، جاءت إلى لبنان عائلات كيروز والحلو وصالحاني وأبو ملهب والشدياق ومخلوف والضاهر وأبو حمد وأبو فاضل وأبو معشر وغيرها بالطبع . ومن أعلام «العناحلة» في لبنان فرج الله الحلو والبطريرك يوحنا الحلو والقديس شربل مخلوف والبطريرك إلياس الحويك وأحمد فارس الشدياق والرئيس شارل حلو والشاعر شوقي أبي شقرا . وكمال الصليبي واحد من الأحفاد الذين سكن أجدادهم بحمدون بالأمس ، وتنقلوا بين الخليل والسلط ودمشق . وآل الصليبي في بحمدون روم أرثوذكس تحولوا إلى البروتستانتية بتأثير من التبشير الإنكليزي والأميركي . غير أن الفارق بين الأرثوذكس والبروتستانت في مخيلة كمال الصليبي ، مجرد فارق بصري ، لأن كنيسة البروتستانت خالية جدرانها تماماً من أي شيء يزينها بما في ذلك الصليب الذي يعتبر تمثالاً منحوتاً ، بينما الوصية الثانية من الوصايا العشر تقول بوضوح : «لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما» . أما كنيسة الأرثوذكس ففيها أيقونات وثريات فخمة . وفي أحد الشعانين ، وهو ذكرى دخول المسيح إلى أورشليم ، يمشي الأولاد في زياح (مسيرة) داخل الكنيسة وهم يحملون الشموع الطويلة الملونة والمزينة بالشرائط وأزهار الربيع . وفي أحد الفصح يتجمع

الناس أمام الكنيسة في الليل ومعهم الكاهن للقيام بما يسمى «الهجمة» ، وتكون أبواب الكنيسة مقفلة . ويطلب الكاهن أن تفتح الأبواب ، ويكرر طلبة ثلاث مرات قائلاً : «ارتفعي أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد» . ثم تفتح الأبواب فجأةً ، ويدخل الكاهن إلى الكنيسة هاتفاً : «المسيح قام من بين الأموات» ، ثم تبدأ المفاقسة بين الأولاد بالبيض المسلوق الملون . إن هذا الاحتفال يكشف عن مدى ارتباط الكنيسة الأرثوذكسية بحضارة هذه البلاد ، وعمق جذورها في التاريخ القديم لبلاد الشام . فتقاليد الفصح هي استعادة لعبادات الخصب المقدسة وديانات الأسرار الجميلة ، وهي ترمز إلى عقيدة الموت والانبعاث والتجدد . وعيد الفصح هو العيد الكبير لدى الأرثوذكس والموارنة ، ولم يكن الروم يعيرون عيد الميلاد كثيراً من الاهتمام ، حتى كادوا يهملونه . وعندما تمكن البروتستانت من ترسيخ حضورهم في هذه البلاد اهتموا باحتفالات الميلاد ، وصار «سانتا كلوز» أشهر من مار جرجس .

كمال الصليبي المؤرخ اللبناني المتحدر من عائلة ذات أصول سورية ، والذي عاش أجداده الأقربون في فلسطين والأردن ، وتنقل والده بين مصر والسودان ، وتتلمذ على نبيه أمين فارس الفلسطيني ذي الأصول اللبنانية ، وقسطنطين زريق السوري ، وزين نور الدين زين الفلسطيني ذي الأصول الإيرانية ، كان أصدقاؤه الأكثر قرباً إلى نفسه عرباً من العراق والشام وفلسطين والبحرين أمثال يوسف إيبش (الدمشقي) ورامز شحادة (الحوراني الأصل) وأسامة الخالدي (المقدسي) ويوسف الشيراوي (البحريني) . ويروي أنه في أربعينيات القرن العشرين ، ما كان ليكتشف أي فوارق بين السوريين واللبنانيين

في ذلك الزمن ، فهو يقول : «لا أذكر أننا كنا في أي وقت سابق نفرق بين لبنانيين وسوريين . فقد ذهبت في إحدى المرات إلى دمشق في رفقة أهلي لزيارة أقرباء لنا هناك ، فلم نقطع شيئاً في طريقنا يمكن تسميته بالحدود ، ولا نحن مررنا بجمارك . جل ما حصل أن ضابطاً على الطريق أوقف سيارتنا للحظة ، وسأل السائق : «الأخوان من لبنان؟» ، وعندما سمع الجواب ابتسم لنا وقال : «أهلين وسهلين» . الطريف أن صديقه مكرم عطية ، وهو صديق ليوسف الشيراوي (الوزير البحريني في ما بعد) ، كان لا ينفك محدثاً الشيراوي ، في كل يوم تقريباً ، عن لبنان كبلد إشعاع ، ثم يقع اشتباك بين مهربي حشيشة الكيف في وادي زحلة يسقط فيه القتلى والجرحى ، فيبادر يوسف الشيراوي صديقه مكرم عطية ساخراً : «ترى مكرم ، صار اليوم إشعاع في وادي زحلة» .

تاريخ لبنان: نكاية بنكاية

يقول كمال الصليبي في مذكراته الموسومة بعنوان «طائر على سنديانة» (عمان : دار الشروق ، ٢٠٠٢) إن والده أخبره «أن لا شيء أحب على قلوب المسيحيين في البلد من نكاية المسلمين والعكس بالعكس . فالمسلمون في لبنان يطالبون بوحدة لا يريدونها في الواقع لا مع سورية ولا مع البلاد العربية مجتمعة . وما الدافع لمطالبتهم بالوحدة إلا نكاية المسيحيين . وحدثه راهب في بكركي بما معناه : «لا تصدق أن الموارنة أحفاد الفينيقيين ، نحن الموارنة أقحاح العرب . وأين منا المسلمون في لبنان وسورية الذين اختلط دمهم منذ قرون بدم الأتراك والأكراد والأرناؤوط والبشناق وغيرهم من تركة بني عثمان؟ نقول عن

أنفسنا فينيقيين فقط لإغاظة المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم القيمين على العروبة في بلادنا» . أما البطريرك المعوشي فقال له : «أتريد أن تعرف كيف أفهم تاريخ الموارنة؟ نحن شعب مخه يابس مثل صخور هذا الجبل ، وما تاريخنا إلا قرون من معاندة الدهر» . وعندما التقى أحمد سامح الخالدي ، وهو المؤرخ والمربي الفلسطيني المعروف ، بادره بالقول : «عندما يأتي اليوم الذي تكتب فيه التاريخ لا تكذب كما يفعل المؤرخون اللبنانيون عادة . قل مثلاً إن فخر الدين كان عاصياً على الدولة العثمانية ونال عقابه . ولا تقل إنه كان بطلاً يقاوم الظلم العثماني ليجعل من لبنان دولة مستقلة ، وهو الذي ربما لم يلفظ كلمة لبنان مرة واحدة في حياته . وهذا ما برهن عليه كمال الصليبي لاحقاً استناداً إلى تحليله الوقائع ، وإلى الوثائق العثمانية معاً . وعلى الرغم من نكاية المسلمين بالمسيحيين ، وكيد المسيحيين للمسلمين وبالعكس فإن المسلمين والأرثوذكس في رأس بيروت ، على سبيل المثال ، كانوا إخوة حقاً لا مجازاً ، أي إخوة بالرضاعة . فكان هؤلاء يقفون في مآتم هؤلاء لتقبل التعازي ، فهم أبناء خالة أو أبناء عمة أو أبناء خال ، حتى إنهم كانوا يستشيرون بعضهم في أمور زواج بناتهم رفعاً للعتب .

***

كمال الصليبي مؤرخ قليل الكلام ، لكنه مثير للزوابع حقاً . ولعله أراد ، عندما التقط من تراث الأدب الإنكليزي عبارة «طائر على سنديانة» ، وجعلها عنواناً لمذكراته ، أن يبوح بفضيلة نادرة وهي الصمت البليغ . أما أصل العبارة فهو : «طائر حكيم مسن حط على سنديانة . كلما رأى أكثر تكلم أقل ، كلما تكلم أقل سمع أكثر» . هكذا عاش كمال الصليبي ، مؤرخاً فذاً ، وإنساناً نادراً ، وانقلابياً في

أفكاره . كثيرون تفلسفوا ولم يغيروا شيئاً . وكمال الصليبي جعلنا ، في كتاب واحد ، ننقلب رأساً على عقب ، ونفكر بطريقة مغايرة وجديدة ومختلفة معاً .

في منزله في رأس بيروت ، وعلى مدى أيام كثيرة ، باح لي كمال الصليبي بكثير من الآراء الجديدة التي ظل يختزنها في عقله عدة سنوات ، فكان هذا الحوار ، بل آخر حوار معه قبل وفاته في سنة ٢٠١١ .

صقر أبو فخر

التوراة والأناجيل

- نظريتك المشهورة والخطيرة في كتابك «التوراة جاءت من جزيرة العرب» أو في كتاب «البحث عن يسوع» ، خلخلت الأسس التي قامت عليها الرواية الدينية التقليدية التي وردت في التوراة ، وكذلك الرواية الإنجيلية نفسها لسيرة المسيح . كيف تفسر ، في هذه الحال ، أن رواية غير صحيحة كالتوراة عاشت هذا الزمن كله ، وفرضت نفسها على التفكير طول هذه المدة؟ والحقائق التاريخية ، في نهاية المطاف ، إما أن تكون كاذبة أو أن تكون هاربة كما يقال . كيف استطاعت هذه الرواية التوراتية أن تعيش هذا الزمن كله؟

● درست اللغات السامية على الدكتور أنيس فريحة[1] في الجامعة الأميركية في بيروت الذي كان يقول لنا : لا تقبلوا أي تفسير للنصوص . كونوا جريئين ولا تخافوا ، لأن هذه النصوص كلها غلط ، وعليكم اعتبارها غلطاً . وبما أن أستاذي سمح لي أن أُخطِّىء ، تشجعت أن أُخطِّىء .

---

(١) ولد أنيس فريحة في رأس المتن بجبل لبنان في ١٩٠٢/٩/٢١ . تخصص باللغات السامية في جامعة توبنغن الألمانية ثم في جامعة شيكاغو . كان ينتمي إلى طائفة الفرندز (أو الكويكرز) التي أسسها جورج فوكس في انكلترا في سنة ١٦٢٥ . أشهر مؤلفاته : «اسمع يا رضا» (١٩٥٦) ؛ «القرية اللبنانية» (١٩٥٧) . توفي سنة ١٩٩٢ .

أنيس فريحة كان شخصاً جريئاً . ونحن ، بضعة أشخاص تتلمذنا عليه ، ولا أدري كم واحداً قرأ المذكرات التي كتبتها بعنوان «طائر على سنديانة» وفيها كلام على أثر أنيس فريحة فينا . أنيس فريحة أثر فينا كثيراً في هذه الناحية ، وكان يقول لي إن من يقول لكم إن هذه القضية التاريخية أو الدينية مدروسة نهائياً فهو كاذب . يجب أن تتوصلوا بأنفسكم إلى الحقائق .

أما البداية فقد كانت مع كلمة حضرموت[1] . حضرموت كمفردة سامية هي جمع مؤنث سالم . مثل بير التي تجمع على بيرات ، أو مثل بيارة التي تجمع على بيارات . لذلك فإن إمكان أن يكون اسمها جمع مؤنث سالم وارد تماماً . لكن لا معنى له . بيروت نعرف ما معناها وأيضاً بير المؤنثة . أما حضرموت فما المفرد منها؟ المفرد يجب أن يكون ، افتراضياً ، الأحرف الصحيحة نفسها ، أي «حَضْرَ» . هنا الضاد يمكن أن

---

(١) تقع حضرموت على خليج عدن عند بحر عُمان ، وهي قريبة من ظفار عاصمة الحميريين القدامى . من مدنها المكلا والسحر وسيؤون ، وهي هضبة تنتهي عند البحر ، ويجري فيها واد يصب في البحر . ويعتقد كمال الصليبي أن اللفظ الصحيح ليس حضرمَوت ، بل حضرمُوت على وزن عنكبوت . أما «مُوت» فهي آلهة كنعانية يرد اسمها في النقوش الأوغاريتية . وفي العهد القديم (المزمور ٢٣) ترد لفظة «صلموت» على وزن حضرمُوت . لكنها تلفظ بالعبرية «صل ماوث» أي ظل الموت (إذا سرتُ في وادي ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معي) . ويعتقد الصليبي أن صلموث هي جمع مؤنث كنعاني لكلمة «صُلمة» (ظُلمة بالعربية) . ويمكن إعادة ترجمة الجملة كالتالي : إذا سرتُ في وادي الظلمات لا أخاف شراً لأنك أنت معي .

تصبح صاداً . والحاء قد تكون خاء ، مثل خَضْرَمَ أو حَضْرَمَ .

هذا السؤال عُرض في مؤتمر تاريخي عن جزيرة العرب قبل الإسلام عقد في الرياض سنة ١٩٧٩ . وفي هذا المؤتمر وقف عالِم من أصل يمني اسمه هادون العطّاس ، وهو رجل كبير في السن ولطيف ، وقال : ليس متاحاً لنا أن نلتقي في كل يوم كعلماء لغة ومؤرخين . أنا أريد أن أخرج عن موضوع هذه الجلسة وأسأل سؤالاً شخصياً : أنا من حضرموت ، ويقولون إن حضرَموت معناها حاضرة الموت . والحقيقة أن الاسم لا ينطبق على المكان ، لأن حضرموت هي سلسلة واحات . وراح يعدد الواحات . لماذا يكون الاسم مشتقاً من الموت وليس من الحياة؟ آنذاك خطر في بالي أن أبحث في معنى حضرموت باعتبارها كلمة واحدة لا كلمتين . في أثناء الحوار تدخل شخص ألماني اسمه ماير على ما أظن ، وقال : أنا لا أعتقد أن حضرموت تعني حاضرة الموت . بل إن هناك نصاً أوغاريتياً يذكر إلهة في رأس شمرا[1] تدعى

---

(١) تقع أوغاريت أو رأس شمرا إلى الشمال من اللاذقية . سُكنت في الألف السادس قبل الميلاد ، وورد ذكرها في وثائق مملكة ماري أو تل الحريري اليوم (نحو ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد) . شهدت عصرها الذهبي بين ١٤٤٠ ق . م . و١٣٦٠ ق . م . وقد دمرها زلزال قوي في سنة ١٣٦٥ ق . م . ، ثم ازدهرت مجدداً إلى أن قضى عليها الإيجيون في سنة ١٢٠٠ ق . م . كان أحد ملوكها العظام نكميد الثاني (ربما هو نفسه قدموس) ، وكان معاصراً لأخناتون في مصر ، ولعله سافر إلى بلاد الاغريق مع بعض رجاله في أثر الدمار . وقد عرفت أوغاريت أقدم أبجدية في العالم (٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ، وهي مؤلفة من ٣٠ حرفاً ، ومنها تطورت أبجدية جبيل إلى ٢٢ حرفاً . وأوغاريت تدعى «غوبلو» أي الجبل ، ومنها جبيل وجبلة . وعلى رأس ==

مُوت . واستنتج أن الاسم يعني حاضرة مُوت .

– **أي حاضرة الإلهة مُوت .**

● أنا قلت إن اعتقادي هو أن هذا الاسم كنعاني مؤلف من كلمة مفردة واحدة على وزن عنكبوت . الآن ما هو معناها؟ مبدئياً هي جمع مؤنث سالم . وخطر في بالي أسماء أماكن أخرى مثلاً عَزْماوِت (عزمُوت) . مفردها عز ، يعني ماعز . ولكنهم حوّلوها إلى عَزْماوِت ، فصار لها معنى آخر هو «قوة الموت» .

– **العز هو القوة .**

● نعم العز هو القوة . وعَزْماوِت «قوة الموت» . فجأة كرّت الكلمات التي أعرفها على هذا الوزن . وإذ بالسيد ماير ينبري ليقول لي : ما شأنك بهذا الموضوع فأنت لست لغوياً؟ وأضاف : أعطني اسم مكان واحد له جمع مؤنث سالم . فأجبته : بيروت وهي جمع بئر . فقال : وكيف انتقل الاسم من أوغاريت إلى ساحل عمان؟ وكدنا أن نشتبك بالكلام . وهنا قلت له ساخراً : مثلما انتقلت اللغة الكنعانية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل بحر العرب ، هكذا انتقلت الآلهة موت من رأس شمرا إلى ساحل اليمن . عند ذلك قاطعني وما عاد يتحدث إلي . وكان هناك مدير سابق للشرطة في منطقة «الجميرة» اسمه عبدالله بن خميس ، فاقترب مني وقال : أعجبني تحليلك ،

= ابن هاني الذي يبعد أربعة كيلومترات من أوغاريت أُقيمت مدينة بيروتي (مدينة الآبار) . وكان يُظن إلى عهد قريب أن بيروتي الواردة في النصوص الأوغاريتية هي نفسها بيروت . لكن ، تبين أن بيروتي هي مدينة أوغاريتية (أنظر : عدنان البني ، «قصر الملكة في بيروت الأوغاريتية» ، جريدة «الحياة» ، بيروت ، ٢٤/١١/١٩٩٨) .

وسأعطيك كتاباً . أنظر إليه وتصفحه وستجد فيه مطلبك . كانت فيه أسماء الأماكن في اليمن .

– **لحمد الجاسر؟**

● لا . الناشر هو حَمَد الجاسر . وفي هذا الكتاب ، وعنوانه «معجم اليمامة» لعبدالله بن خميس عثرت على حضرموت . حضرموت وادٍ . ومن شمال حضرموت يمكن الوصول إلى صحراء هي أكبر صحراء في العالم .

– **الربع الخالي .**

● نعم . تقطع الصحراء فتصل إلى اليمن . أمامك واد مواز لوادي حضرموت اسمه وادي خضرمة .

– **هذا مفتاح مهم لفك هذه المسألة .**

● نعم . في مسألة حضرموت ما عاد هناك مجال للشك . إن حضرموت هذه هي خضرمُوت . ولو أحضرنا الآن قاموس بطرس البستاني[1] لوجدنا أن خَضْرَمَ تعني الواحة . إذاً خضرمات هي جمع الاسم العربي «خضرمة» ، وخضرمُوت هو جمع الاسم بالصيغة الكنعانية . وفي الحالتين يعني «الواحات» .

– **وحضرموت الآن مجموعة واحات .**

● مجموعة واحات اسمها ، بالتحديد ، الواحات . ماذا يفيدنا هذا الأمر؟ يفيدنا بأن حضرموت ، في زمن ما ، كان يسكنها أناس يتكلمون

(١) أحد كبار أعلام النهضة في بلاد الشام . ولد في قرية الدبية في لبنان سنة ١٨١٩ ، وأصل عائلته من جبلة . شارك في ترجمة التوراة إلى العربية . ووضع «قاموس محيط المحيط» و«دائرة المعارف» . كما أسس صحيفة «نفير سورية» سنة ١٨٦٠ . توفي في سنة ١٨٨٣ .

الكنعانية ، وكان يسكن في خضرمات أناس يتكلمون العربية . وخضرموت وخضرم اسمان عربيان . إذاً ، استفدنا معرفة تاريخية من اللغة . كما جرى التأكيد أن اللغة الكنعانية كانت متداولة في هذه المنطقة بين حضرموت وساحل البحر . وللمصادفة ، فقد كنت قد زرت ، قبل سنة من ذلك المؤتمر ، اليمن الجنوبي . الآن ، إذا أخذنا أسماء الأماكن في الجزيرة العربية ودرسناها لغوياً ، يصبح لدينا مفتاح لتاريخ الجزيرة العربية غير علم الآثار . وعلماء الآثار حين يكتشفون أثراً ما يبدأون بالتفلسف . لكننا من اللغة نفسها أصبح لدينا تاريخ ناطق . بينما تاريخ الجزيرة العربية ليس معروفاً إلى حد كبير . وكنت حينذاك أكتب كتاباً بعنوان A History of Arabia وكنت أرجع إلى كثير من المصادر ، وهذه المصادر تعتمد على أصول معروفة . غير أن هؤلاء الذين كتبوا هذه المصادر مابرحوا يشككون فيها ، ويقولون أن ليس أكيداً أن هذا الأمر حدث في سنة ٥٠٠ ق .م . مثلاً ، وإنه ربما حدث سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . هنا ، لدينا أمر سابق على اللغة التي لا تتغير على مدى ألوف السنين . في هذا السياق ، مثلاً ، إن ما يسمى جنة عدن الموجودة على نهر «إيخوس» في محل اسمه عدن التي فيها شجرة المعرفة وشجرة الحياة ، كما هو وارد في التوراة ، موجود أيضاً في عدن حيث يظهر نهر ليلتقي نهراً ثانياً ، تماماً مثل دجلة والفرات . في هذا الميدان لنأخذ اسم «حاديقل» الذي ترجموه إلى دجلة . والحقيقة أن الحاء هنا ليست الهاء ، أي أداة التعريف . فهي جزء من الجذر ، وحاديقل هو وادي حدقل . أنا أتطلع إلى هذه الجغرافيا وأرى الأماكن ، وأن هناك «حياة مرتبة» . وكان لدي صديق أحضر إليّ خرائط عسكرية تفصيلية ، وقال لي إن هناك جهداً مهماً أنجزه حمد الجاسر في هذا الميدان . فذهبت إلى

السفارة السعودية في بيروت وطلبت بعض المطبوعات ، ومنها كتابات حمد الجاسر مثل «المعجم الجغرافي للمملكة العربية السعودية» ، فأعطوني إياها . وبدأت استكشاف الأسئلة بمساعدة كتابات حمد الجاسر وهذه الخرائط ، واكتشفت أن بين الطائف وحدود اليمن ، في منطقة يبلغ طولها ٦٠٠ كلم وعرضها نحو ٢٠٠ كلم ، وتدعى عسير أو بلاد السراة ، توجد جميع الأمكنة الواردة في التوراة ، والتي أتذكرها تماماً . لماذا أتذكرها؟ لأنني بروتستانتي ، والبروتستانت يقرأون التوراة . ولو كنت مارونياً أو أرثوذكسياً لاختلف الأمر على المستوى الشخصي ، فهؤلاء لا يستعملون التوراة إلا نادراً .

– يستعملون الأناجيل وحدها .

● نعم . أما أنا فأعرف هذه الأماكن بالفطرة . لذلك أصبحت أمام وضع يجب أن يعاد النظر في تاريخ الجزيرة العربية كله ، وفي تاريخ بني إسرائيل أيضاً ، وفي التاريخ التوراتي ، بل يجب إعادة النظر في كل شيء .

– بما في ذلك التاريخ المسيحي؟

● نعم ، في كل شيء ، وفي كل شيء قيل عن الآشوريين وعن البابليين وعن المصريين القدامى ؛ لأن كل ما قيل هو «لوفكة» (زعبرة) ، أي تزوير وقلب للحقائق . أعود إلى القول : من هنا بدأنا التركيز على التوراة . وفجأة لمع في ذهني أمر محدد هو : لماذا الإسلام يعرف جيداً التوراة؟ أنا أعلم أن المسيحيين يعرفون التوراة . لكنهم ، في الأساس ، يعتبرونها عهداً قديماً وانتهى أمره مع مجيء المسيح . أما الإسلام فيعرف التوراة جيداً لأن العرب يعرفون بني إسرائيل ، ولأن الجميع عاشوا في أماكن متجاورة .

النبي محمد وورقة بن نوفل

- توصلت في مجمل أبحاثك التاريخية ، كما هو واضح في كتابك «البحث عن يسوع» ، إلى أن هناك ثلاثة «يواسيع» إذا سمحنا لأنفسنا بهذا الجمع . هل هناك محمّدات غير محمد بن عبد الله؟

● هناك سبب وجيه لأن يفكر الإنسان في هذا الموضوع . والداعي إلى دراسة تاريخ المسيح هو أن القرآن أطلق عليه اسم عيسى بن مريم ، أما في الأناجيل فاسمه يسوع . ثمة إذاً سؤال موجود ومطروح . لكن ليس من شأني التفكير في هذا الأمر وحدي ، ولا يوجد ما يستبعد البحث بهذا الاتجاه .

- ما يدعوني إلى هذا السؤال هو أن هناك بعض المصادر ، مثل سيرة ابن هشام ، تروي أن ابنة خالد بن سنان جاءت النبي محمد وقالت له : أقرئني بعضاً من قرآنك ، فقرأ . فقالت له : هذا ما كان يقوله أبي . فقال لها من أبوك؟ فذكرته ، فقال لها : هذا نبي ضيّعه قومه . ويمكننا أن نفترض ، بناء على هذه الرواية ، أن هناك قبل النبي محمد أنبياء آخرين مثله ، ولا سيما أن أفكار التوحيد ، أي توحيد الجزيرة العربية تحت سلطة واحدة وإله واحد ، كانت مسألة حيوية حتى قبل عهد النبي محمد ، وأن محاولات سابقة لتوحيد

الجزيرة العربية تحت سلطة واحدة وأيديولوجية واحدة سبقت عصر النبي محمد وفشلت ، ثم نجحت مع النبي محمد .

● قد يكون هناك سبب ، ويجب أن يكون هناك دافع علمي حتى يبحث الإنسان في هذا الأمر . أنا شخصياً لم أجد شيئاً في هذا الأمر ، ولكن قد يكون هناك مَن وجد . ولكن في القرآن هناك قصة «الأمّيون» و«النبي الأُمّي» . هؤلاء قوم ليس لديهم كتاب (أي العرب) . إنهم قوم من المؤمنين . النبي محمد جاء وعرّف نفسه بأنه نبي أُمّي ، هكذا أعتقد .

– كان اسمه ، بحسب بعض المصادر : قثم .

● قصة قُثم مسألة أخرى . واسمه ليس قثم اللات ، بل قثم فحسب .

– يقال ان اسمه قثم بن عبد اللات . وهذا ما كان عليه قبل الإسلام .

● أنا لست مختصاً بهذا الموضوع . سألت الدكتور طريف الخالدي فقال لي إن ذلك مذكور في كتاب «الأنساب» للبلاذري . أنا أذكر عندما درست السيرة النبوية درست أيضاً مؤلفات هنري لامنس[١] الذي كان يبحث عن كل ما يسيء إلى الإسلام وينشره ، بما في ذلك قصة قثم .

(١) هو الأب هنري لامنس اليسوعي الفلامنكي . أصدر في سنة ١٩٢١ كتابه المشهور «سورية : موجز تاريخي» ، ووضع حدوداً لسوريا التاريخية تطابق اليوم حدود سورية وفلسطين والأردن ولبنان معاً ، وهو الذي روّج فكرة صراع السريانية مع الاجتياح العربي ، وصاغ فكرة «لبنان الوطن الملجأ» .

– إذاً ، لم تتوصل إلى نتيجة أبعد من ذلك . لذلك دعنا نعد إلى حكاية «النبي الأمّي» . فالأُمّي ، بحسب بعض التفاسير ، يعني المكّي ، فمكّة هي أُم القرى ، والنسبة إلى أم القرى هي «الأمي» مثلما نقول «الخاني» نسبة إلى خان شيخون وليس الخان شيخوني ، والديري نسبة إلى دير الزور . و«الأُمّيون» هم أهل مكّة ، والنبي الأُمّي هو النبي المكي[١] .

● الاشتقاق ضعيف جداً في هذه الحال .

– حسناً ، أبحاثك في تاريخ اليهودية وفي التاريخ المسيحي أيضاً ، قادتك إلى أفكار ، بل إلى نظرية مدهشة غيّرت قناعات كثيرين . هل توصلت إلى أي نتائج جديدة في تاريخ الإسلام لم تنشرها بعد على الناس؟

● خذ مثلاً كلمة «غوييم» التي تعني الغرباء (الأغيار) . الغوييم هم الناس الذين ليسوا من بني إسرائيل . وهذا لا يعني أنهم ليسوا يهوداً . الآن ، اليهود يظنون ، وهو ظن خاطىء ، أنه عندما نزلت التوراة فرقت بين اليهود وغير اليهود . وهذا غلط ، فالتوراة فرقت بين بني

(١) في السيرة النبوية لابن هشام ورد ما يلي : «فبينا رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل (بن عمرو) مندوب المشركين إلى صلح الحديبية . . .» . وفي البخاري جاء ما يلي : «وأخذ رسول الله الكتاب ليكتب ، فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد» . وفي حديث قال : إئتوني بالدواة والكتب أكتب لكم ما لا تقيلون بعدي أبداً . وفي أحد الأخبار أن النبي قال لمعاوية وهو يكتب بين يديه : انصب الباء ، وفرّق السين ولا تعوِر العين وحسِّن الله ومد الرحمن وجوِّد الرحيم ودوِّر النون . وجميع هذه الروايات إشارات إلى أن النبي لم يكن أمياً .

إسرائيل ، وغير بني إسرائيل ، أي بين العبريين وغير العبريين . العرب عبريون بحسب التوراة . يعني أننا عن طريق سام بن نوح نحن جميعنا من سلالة عابر بن سام . ثم جاء ابراهيم وله إسماعيل وإسحق . فكل مَن ليس من إسحق هو عربي . ثم إن المرأة التي تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة اسمها قطورة ، وجميع أبناء قطورة ، أي كتورة ، عرب .

وبعد ذلك أنجب إسحق ولديه عيسو ويعقوب . وكل مَن ليس من يعقوب فهو عيسو . وعيسو كان اسمه أدوم ومنه جاء الآدوميون وهؤلاء كلهم عرب . إذاً هناك في بني إسرائيل عرب ليس من عابر بن سام وحده .

– هم لا يفرقون بين بني إسرائيل واليهود .

● هناك فرق جوهري أكيد .

– لنعد إلى التاريخ الإسلامي . بعضهم أراد أن يحط من قدر ورقة بن نوفل[1] ومن دوره في الدعوة الإسلامية . حتى إن بعضهم

(١) هو ورقة بن نوفل بن عبد العزى بن قصي (ابن عم خديجة) . كان أحد أربعة من قريش اشتهروا بالحكمة والتأمل ، فاعتزل عبادة الأوثان وحرم الخمر ، واعتنق النصرانية . أما الثلاثة الآخرون فهم : عثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو بن نفيل . كان أبيونياً ، أو يهودي متنصر رأى في المسيح نبياً عظيماً وليس إلهاً . ويروي الطبري ان خديجة ذهبت إليه حين جاءها محمد يرتجف فقال لها : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة في يده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة ، لقد جاء الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له أن يثبت . توفي بعد الدعوة بأربع سنوات (ربما في سنة ٦١٧ ميلادية) . وتقول عائشة : «ولم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي» (راجع : صحيح البخاري) .

اعتبره شخصية وهمية . ماذا تقول في ورقة؟ هل هو شخصية تاريخية حقاً؟ وما دوره في الدعوة الإسلامية؟ ويبدو أن بعضهم لا يريد أن يمنحه أي دور في الدعوة الإسلامية لكونه مسيحياً .

● ورقة نصراني . والنصارى كانوا يعتبرون أنفسهم من بني إسرائيل ، وكانوا يتبعون شريعة موسى بحذافيرها كلها ، وأقرب شيء إليهم هو الإسلام[1] . قال ورقة بن نوفل للنبي : هل أرى قومك يخرجونك؟ لأنه لم يأتِ أحد بمثل هذا الكلام ولم يخرجه قومه . أقصد أن الإسلام بدأ بالنصارى .

– إذاً ما الفرق بين النصرانية واليهودية إذا كان النصارى جزءاً من بني إسرائيل ويتبعون شريعة موسى؟ هل لأنهم اتبعوا شريعة المسيح؟

● القصة كلها هي المشروع الطويل العريض في تاريخ بني إسرائيل . إن الذي صُلب في القدس ، وادعى المؤمنون به أنه قام من الموت ، وأنه هو المسيح ، هو المطالب بعرش داود . وهو نفسه قال : أنا مُطالب بعرش . والمسيح هذا وُلِد من عذراء ، وأوصافه تنطبق على ما ورد عنه في القرآن في سورة آل عمران وفي سورة مريم . . . إلخ . أي أن هذه الأوصاف تنطبق على المسيح الذي كان مُطالباً برئاسة الكهنوت

(١) النصارى ليسوا مسيحيين وليسوا يهوداً ، فهم لا ينكرون نبوة عيسى كاليهود ، ولا يؤمنون بألوهيته كالمسيحيين . وحتى في أوروبا ، نظر بعض البروتستانت إلى المسيح كمعلم أخلاقي وليس كابن لله ، وكانوا يرون ان الأخلاق وليس الإيمان هي جوهر الدين . وهذا هو محتوى «المدرسة الربوبية» التي ترى أن الناس العقلانيين يعبدون الله على أكمل وجه حين يعاملون إخوانهم في الإنسانية بالعدل .

الإسرائيلي ، أي رئيس الكهنة . مريم دخل عليها الملاك في المحراب ، فوجد عندها رزقاً . وجملة دخل عليها في المحراب ، بحسب القرآن ، تعني أنها كانت كاهنة . كانت أخت هارون يعني من عائلة هارون ، أي من اللاويين وهم كهنة اليهود . المهم أن مشروع بني إسرائيل كان يتضمن أن يستقلوا سياسياً وأن يستقلوا دينياً ، وهو المشروع الذي أسسه موسى ونصّب أخاه هارون خليفة له . وعندما مات داود كان من المفترض أن يتسلم ابنه الكبير أدُونيّا مكانه . ولكن محظيته بتشبع بنت أليعام إمرأة أوريا الحثي تمكنت من جعل الخلافة لابنها سليمان . وأول ما قام به سليمان أنه قتل أخاه أدونيا . وأرسل سليمان في الوقت نفسه وراء آخر كاهن من سلالة هارون وقال له : لو لم أرك بعيني تحمل تابوت العهد أمام أبي داود لما أبقيتك في قيد الحياة . ولهذا السبب لن أقتلك ولكن أغرب عن وجهي ، وارحل إلى مكان يدعى «عنطوطة» أو «عناتوت» ، وهناك تزرع أرضك (وكان لديه في عناتوت أرضٌ زراعية) ولا أريد أن أراك مجدداً . والقصة في عنطوطة جرت بين أفراد عائلة آل عمران . والمسيح كان من سلالة آل عمران ، وهو يعرّف نفسه في سفر أرميا أنه من كهنة عنطوطة . وقد نذر المسيح هذا نفسه للانتقام واسترجاع المنصب لآل داود . كما نذر نفسه لمقارعة بني صادوق وفضح ما فعلوه في الكهنوت ، والزعبرة التي أحدثها بنو صادوق الذين ليسوا من بني هارون (اللاويون) بل أحلّوا محلهم سلالة شخص اسمه صادوق غير معروف النسب . وعيسى ابن مريم هو آخر العنقود من آل عمران الذي ولد في وادي جليل في الطائف ، وقام مطالباً بعرش داود . ومريم الكاهنة ، أي أمه ، هي التي وهبته الانتساب إلى هذه السلالة .

– هل الكاهنة هنا هي امرأة من عابدات الهيكل اللواتي ينذرن

أنفسهنّ للغرباء . فإذا حبلت من غريب سمي المولود «ابن الله»[1]؟

● هذا الاستنتاج صحيح أولياً ، لكنه يحتاج إلى تدقيق أكثر .

(١) عابدات الهيكل هن نساء منذورات لخدمة المعابد . وكان الاعتقاد بسر الغريب شائعاً في ذلك الزمن . وكان الغرباء يضاجعون عابدات الهيكل ويرحلون . ومن تحبل منهن يدعى مولودها ابن الله لأنه غير معروف الأب . إن ذلك الأمر كان نوعاً من البغاء المقدس . وفي قصة لوط أن ملاكين جاءا بصورة رجلين غريبين . وفي الإنجيل : «لا تنسوا إضافة الغرباء لأن بهم أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون» (رسالة إلى العبرانيين ، الإصحاح ١٣ ، الآية ١) . وفي الروايات الإسلامية أن رجلاً غريباً دخل المسجد وسأل الرسول عن الإيمان والإحسان ثم خرج وغاب عن الأبصار . ولما سُئل الرسول عنه قال : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم . ومن بين الذين ولدوا من أم عذراء أو حُبل بهم من روح الله أفلاطون التي حملت به أمه العذراء بريتونيا من الإله أبولو ؛ والاسكندر الذي حبلت به أمه أوليمبياس من الإله زيوس ؛ وفيثاغورس الذي حملت به أمه بثياس من أبولو . وكذلك أدونيس السوري وميثرا الفارسي وباخوس الإغريقي وكريشنا الهندي وكريس الكلداني . وثمة تطابق لفظي لافت بين كريس الكلداني والمسيح السوري (الفلسطيني) ، أي كرايست Christ وكرشنا الهندي ، والأخير ولد من أم عذراء تدعى مايا (مريم) ، وصُلب وقام من بين الأموات بعد ثلاثة أيام . ومهما يكن الأمر فإن إنجيلي يوحنا ومرقص لا يشيران إلى ولادة يسوع من عذراء ، وكذلك لا تشير رسائل بولس . بينما إنجيل متى وإنجيل لوقا يتحدثان عن هذه المعجزة .

العرب والدولة الدينية والحداثة

- منذ ظهور الإسلام والحياة العربية ، على الرغم من التغيرات الهائلة التي خضعت لها هذه المنطقة ، تدور في إطار الحاكم والرعية والاستبداد . جميع شعوب العالم تطورت نحو الديمقراطية والدولة المدنية والحريات إلا العرب . ومنذ تشكل الدولة العربية الأموية ما زلنا ندور في دوامة الحاكم المستبد والرعية المستكينة من دون أن نتمكن من الخروج من هذه الدائرة . أين تكمن العلّة؟

● إن طراز الغرب ليس بالضرورة نمطاً يحتذى للتطور ولطريقة الحكم . لنفترض أنه يجب أن يكون لدينا نهضة على الطريقة الأوروبية ، وكذلك إصلاح ديني . . . إلخ . لكن ليس بالضرورة أن يكون الغرب معياراً للتقدم والتحضر . وقد دفع الغرب ، في أي حال ، ثمناً كبيراً للحصول على ذلك . وكان متوحشاً تماماً في هذا المسار ، إلى أن استقرت الأمور على ما نعرفه من الغرب . نحن العرب عشنا مع الغربيين ونعيش مع غيرهم ، لكن لدينا بغض غير صحيح للنفس . كنا ننتقد أنفسنا أكثر من اللازم ، وليس بالضرورة حيث يجب الانتقاد . أنا أعتقد أن أهل رأس بيروت أحسن من سكان الغرب . هؤلاء عشت معهم في أثناء الحرب الأهلية ، أي عندما كانوا يستطيعون القول لي : «أنت غريب» . ولم يحدث بيننا إلا كل ما هو جيد . هل نيويورك

مقياس الحضارة؟ إذا انقطعت الكهرباء لساعات تنهب المدينة كلها بشكل همجي .

– لماذا إذاً لم يتعمم نمط رأس بيروت على بقية المناطق اللبنانية؟ ما العلّة؟

● هذا نوع من التمني . ولكنني أقول لك أن ليس لدى الغرب ما هو موجود في رأس بيروت .

– في فترة معينة ربما لعبت الاسكندرية مثل هذا الدور ، كمدينة كوزموبوليتية عاش فيها يهود وأرمن وطليان ويونان . . . إلخ . وهنا تكمن بؤرة السؤال : أي أن الحاضرة المدينة تمدّن محيطها . بيروت كان لها شأن حضاري بلا شك ، لكنها لم تتمكن من تحديث محيطها القريب حتى في نطاق المدينة نفسها . ونحن لا نستطيع أن نبني أي نتيجة على تجربة محدودة حدثت في رأس بيروت في فترة زمنية قصيرة ، أي منذ نهاية الأربعينيات ، وبالتحديد منذ سنة ١٩٤٩ ، أي غداة النكبة الفلسطينية ، حتى الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥ .

● عندما كنت أعلّم في أوكسفورد كان هناك شاب لطيف اسمه رغيد الصلح . قلت له مرة : أمضيت حياتي وأنا أتكلم على الموارنة ومسيحيي الشرق . لكن هذه المرة ، أي في مؤتمر دعيت إليه في جامعة فيلادلفيا ، سأتحدث عن البروتستانت . فضحك . فقلت له : لماذا تضحك؟ قال لي : ليس علي أن أضحك ، بل يجب أن تتناولهم بالحديث بالتأكيد . قلت له : لماذا؟ قال لي : العالم العربي من دون بيروت ما قيمته؟ وبيروت من دون رأس بيروت لا قيمة لها . ورأس بيروت من دون البروتستانت والجامعة الأميركية لا تساوي شيئاً .

– العالم العربي يطمح إلى نهضة ما ، وإلى تغيير أحواله إلى الأحسن . وهذا طموح شعوب العالم كله . في بلادنا نتذكر محمد علي الذي حاول إنجاز مشروع طموح ربما حقق بعض الأمور ، لكنه لم يحقق ما أراد . أما من جاء بعده فعلى الأرجح فشل كثيراً . لنأخذ مثلاً جمال عبد الناصر ، فقد كانت لديه جماهيرية هائلة ، وكارزمية هائلة أيضاً ، وكان لديه حب الناس ، ولم يكن حاكماً معزولاً عن الناس . وعلى الرغم من ذلك فشل . ماذا يحتاج الحاكم من أجل نهضة بلاده أكثر من اقتناع الناس والمواطنين بمشروعه ، ومع ذلك لم يتمكن حتى عبد الناصر من أن يحقق إنجازاً كبيراً . نعود إلى السؤال الأصلي : لماذا لا زلنا ندور في زمن دائري؟ لماذا لا نخرج من حال التخلف الثقافي والعلمي ، والتخلف في حقل الإدارة . . . إلخ ، إلى رحاب المعاصرة؟

● عبد الناصر كان ريادياً . ثم إن تاريخ ثورة الضباط الأحرار ما يزال ناقصاً جداً . لم أشتغل على هذا الموضوع ، لكن ثمة كتباً مسؤولة ، وقد استند مؤلفوها إلى أصول الأصول من المعلومات والوثائق التي تفيد بأن هذه الحركة لم تكن بعيدة عن الغرب .

– تقصد مايلز كوبلاند وكتابه «لعبة الأمم»؟

● نعم . مايلز كوبلاند . حين ظهر مايلز كوبلاند راح الناس يقولون إنه اخترع هذه القصة ، أي قصة علاقة الثورة المصرية بالغرب . كان كوبلاند صديق صديقي الشخصي وهو شخص بريطاني كان رئيساً لشركة نفط العراق (IPC) . وكان بيته هنا ، في رأس بيروت ، وأنا أعرفه جيداً ، ودعاني مرات إلى منزله . وفي تلك الأثناء كنت على عداء مع جمال عبد الناصر .

- هناك سؤال محيّر هو التالي : إذا كان عبد الناصر جزءاً من السياسة الأميركية ، فلماذا حاولت إسرائيل والولايات المتحدة القضاء عليه في سنة ١٩٦٧؟ إلاّ إذا كان لديه مشروع سياسي آخر ؛ مشروع سياسي يعارض المصالح الأميركية والإسرائيلية في المنطقة ، فشنوا عليه العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ثم حرباً طاحنة سنة ١٩٦٧ .

● أنا لا أعرف الجواب تماماً ، لكنني أقول لك (This is a right question) ، ولا أدري تماماً ما الجواب . ولا أقول لك إن مايلز كوبلاند نزل من السماء ، أي إنه ملاك . غير أن مايلز كوبلاند كان يعمل مع (CIA) ، ومن المؤكد أنه ليس كاذباً أو منافقاً ، وكتب كتاباً مهماً جداً هو «لعبة الأمم»[1] .

- تعاني المجتمعات العربية منذ فترة ما يسمى السلفيات الإسلامية والأصوليات الحديثة التي تحولت إلى ظاهرة سياسية . هل تعتقد أن الإسلام لا يستطيع الاستمرار إلاّ بالعنف؟ هل العنف أمر ملازم للهوية الإسلامية في هذه المرحلة التاريخية؟

● ليترك الغرب الإسلام والمسلمين ، وهم ربما يتدبرون أمورهم بالطريقة الملائمة . لهذا السبب لن أزيد على مصائب العرب تحفظاتي

---

(١) كوبلاند هو أحد أشهر ضباط المخابرات المركزية الأميركية . ولد في ١٩١٣/٧/١٦ ، وأصبح مديراً لمحطة CIA في دمشق ثم في القاهرة ، وكان انقلاب حسني الزعيم في ١٩٤٩/٣/٣١ من إخراجه وتنفيذه لتسهيل توقيع اتفاقية التابلاين التي تسمح بمد خطوط النفط من السعودية إلى الزهراني عبر الأراضي السورية . له كتاب مشهور هو «لعبة الأمم» (بيروت : الانترناشيونال سنتر ، ١٩٧٠) .

الخاصة في شأن الإسلام والحركات الإسلامية ، فالأوروبيون ليسوا مثال الإنسانية .

- في أي حال ، يبدو العالم العربي الآن مفتتاً مذهبياً وطائفياً . أنت كمؤرخ كيف ترى أسباب هذا التفتت ، المذهبي والإثني ، في العراق وفي السودان ، الذي يفتك بالمنطقة؟ ما السبب؟

● خذ جنوب السودان مثلاً . إنه لأمر مضحك ، إنها لمشاهد ساخرة تلك التي تراها هناك . يرتدون القبعة ويحاربون السودانيين الشماليين[1] . نحن خلصنا من «البرنيطة» منذ أيام بني عثمان ، وكنا نعتبر ارتداءها عيباً . هؤلاء في جنوب السودان يمثلون أسوأ ما يمكن تخيله من المسيحية العالمية .

- بغض النظر عن هذا المشهد . المشكلة في جنوب السودان هي أن النظام المركزي في الخرطوم لم يتمكن من إقامة نظام عادل ، فجعل أهل الجنوب ، في معظمهم ، ينفرون من الشماليين ولا سيما عندما أرادوا تطبيق الشريعة الإسلامية على غير المسلمين في الجنوب . وكان أمراً طبيعياً أن يرفض أهل جنوب السودان تطبيق الشريعة الإسلامية ويتجهون إلى الانفصال . ومهما يكن الأمر ، فأنت قمت بما يشبه القطيعة المدهشة مع الرواية التاريخية التقليدية وخصوصاً تاريخ الديانات والديانة اليهودية بالتحديد . هل ترى أن المشروع الحضاري للعرب ، إذا كان لديهم مشروع للنهضة والتقدم ، يحتاج إلى قطيعة مع التاريخ القديم؟ أم أن من غير الممكن ولادة

---

(١) الإشارة واضحة إلى سيلفا كير رئيس جمهورية جنوب السودان الذي يتخذ القبعة السوداء الكبيرة زياً خاصاً به .

الجديد إلاّ في أحشاء القديم؟ ولا سيما أن نظريتك التي عرضتها في كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» ، وفي كتاب «البحث عن يسوع» ، كانت نوعاً من القطيعة المدهشة والجميلة مع التاريخ التقليدي ، فأسست نظرية جديدة لا علاقة لها بالرواية التقليدية .

● هذا الكلام بعيد عن طريقة تفكيري حتى إنني لا أدري ما أجيبك . فأنا لا أفكر سياسياً البتة . لهذا السبب هذا السؤال يفترض موقفاً سياسياً . هل من الممكن صوغ السؤال بطريقة أخرى؟

– أرجو أن أنجح في صوغ سؤالي ، فأقول إن عصر النهضة الأوروبي ، على سبيل المثال ، يؤرخ له بظهور البروتستانتية التي أجرت نوعاً من القطيعة مع الكاثوليكية من خلال الإصلاح الديني والانشقاق التاريخي الكبير عن الكنيسة الكاثوليكية . بهذا المعنى نفسه ، هناك كثير من المفكرين النهضويين في العالم العربي يتطلعون إلى إعادة بناء المجتمع العربي على أسس جديدة ؛ أسس قائمة على العلمنة والحريات والديمقراطية والمواطنة المتساوية . هل يحتاج الأمر ، كما جرى في أوروبا ، إلى قطيعة مع الموروث ، أي مع الإسلام؟

● عندما يريد الإنسان أن يبتدع أمراً جديداً عليه أن يكسّر أشياء قديمة . هذا مؤكد . أنا لا أرى أن ما نحن فيه سيء إلى هذا الحد . نحن أحسن من غيرنا في أمور كثيرة . أما هذا الشعور الذي ينطلق من العام ليعم الجميع فلا أعتقد أنه أمر جدير بالأخذ به . علينا أن نصلح أحوالنا بالتأكيد ، ولكن ليس كما يريده الغرب .

– هل تعتقد أن الوضع العربي سليم؟

● لا أعتقد أنه وضع سيء إلى هذه الدرجة التي يتحدث عنها

المثقفون . لن أتمثل بأميركا ، فأميركا الشر المطلق .

– معيارك إذاً ليس أن نصبح مثل أوروبا ، أو مثل أميركا . . .

● لا ، لماذا تريد أن نصبح مثل أميركا؟ هل أن أوروبا شيء جميل؟ أنا الآن لا أسافر إلى أوروبا وأميركا . عندما كان المسؤولون في بريطانيا والولايات المتحدة يحترمون الناس على المطارات كنت أسافر إلى تلك البلاد . الآن ما عادوا كذلك . فصرت لا أذهب لا إلى هنا ولا إلى هناك .

– لكن عندنا في العالم العربي أسوأ منهم .

● عندنا أشياء سيئة كثيراً بالتأكيد . لكن أميركا التي تريد منا أن نكون مثلها مصيبة . أنا أحب فرنسا كثيراً لأن الفرنسيين كانوا «أوادم» جداً معنا .

– مع لبنان ربما . لكن في الجزائر لم يكونوا أوادم .

● ومع ذلك نحبهم . لكنني حين زرت فرنسا آخر مرة أُهنت في المطار مع شمشمة الكلاب . كل إنسان في المطار آنذاك كان ينظر إلي والكلاب تشمّني . ما عدت أذهب إلى فرنسا منذ تلك الحادثة . أما في ألمانيا فهم يظنون أنفسهم آلهة . قلت لهم إن هذه هي المرة الأخيرة التي أجيء فيها إلى ألمانيا This is the last time I come to Germany ، وفعلاً ما عدت أذهب . ولن أخسر شيئاً .

– القصد من سؤالي هو أن العالم العربي منذ نحو مئة سنة يحاول أن يطور حياته الثقافية والسياسية ، وأن يتقدم نحو الحريات ، وأن يحل مشكلاته مثل مشكلة الأقليات غير المحلولة في العالم العربي ، ومثل قضية فلسطين غير المحلولة أيضاً . هنا ، في هذا النطاق ، يبدو العالم العربي كأنه لا يتقدم إلى الأمام باتجاه حل

مشكلاته ، بما في ذلك مشكلات الفقر والتنمية والقضايا الوطنية . . . إلخ . ومن المنطقي أن أي مشروع نهضوي أو سياسي يجب أن يتجه إلى حل هذه المشكلات . . . ودائماً نفشل .

● ليس بالضرورة أن تأتي الحلول على حساب ما هو جيد لدينا . لدينا أمور كثيرة جيدة ، ولا نريد أن نفقدها .

– أوافقك على أن من يضع نمط التطور الأوروبي أو الأميركي مثالاً له سيفشل بالتأكيد . تخيل لو أن الصينيين أرادوا أن يلحقوا بنمط الحياة الأميركية ، فيستهلكون من البنزين والطعام والثياب ما يستهلكه الفرد الأميركي ؛ لو حصل ذلك لأكلت الصين العالم ، لأن موارد العالم كلها حينئذٍ لن تكفي الصينيين . ولا بد أن يكون هناك نمط من التطور الإنساني ، لا الكمّي . هذا النمط من التطور الكمّي لا نريده بالطبع . ما نريده يجب أن يقودنا إلى التقدم من دون أن نفقد هويتنا ، ومن دون أن نصبح صورة عن الأميركيين أو الأوروبيين . إنها معضلة ، ولا شك في أنها معضلة فكرية أيضاً .

● يجب أن نحب أنفسنا ونحترمها ، ونفهم أن لدينا كثيراً من القيم الجميلة التي لا نريد أن تندثر .

– تقول إن ابن خلدون لم يكن مؤرخاً في الأساس بقدر ما كان عالم اجتماع استند إلى التاريخ[1] . هل هناك إمكان للتفريق بين عالم الاجتماع والمؤرخ لدى ابن خلدون؟

(١) إبن خلدون هو مؤسس المدرسة الوضعية في علم الاجتماع مع أنه ينتمي إلى الفكر التاريخي ؛ فهو مؤرخ يتفلسف . وإنجازه في هذا الميدان هو الفصل بين فن التدوين وعلم التاريخ بما هو علم بقواعد السياسة واختلاف الأمم وأسباب نشوئها .

● هذه من الأسئلة التي لا أسألها ، وهذا النوع من الأسئلة أتحاشى أن أتناولها . أتذكر أن ابن خلدون وقف في مكان ما عند قرطاجة مع معلمه ، ولا أدري من هو معلمه ، وكانا يتفرجان على القوافل القادمة من الصحراء لتضع بضائعها في المرفأ ثم لتشحن البضائع ، في ما بعد ، بالسفن إلى أماكن أخرى . قال له : أنظر . هذا ما نصنعه للتاريخ . وهذا هو نوع تفكيري . أنا لا أنسج بل أكتشف وأنقل ما أكتشفه من الوقائع .

– في إطار تأثر العرب بالكتابات الغربية فنحن لم نستفد من كتاب «الأمير» إلا شعاراً واحداً هو «الغاية تبرر الوسيلة»[1] . لكن العرب ، علاوة على ذلك ، طبقوا فكرتين من كتاب «الأمير» هما : «صداقة الجنود المسلحين أفضل من صداقة الشعب الأعزل» و«الأسلم أن تخافك الرعية بدلاً من أن تحبك» . هل ما زال الأمر على ما هو عليه منذ عصر الدولة الأموية؟

هذه المبادىء المكتوبة في كتاب «الأمير» لمكيافيلي تشبه القول المأثور باللاتينية : «ليكرهوا شرط أن يُطيعوا» . وهو منسوب إلى «كاليغولا» . إن الجنس البشري لاحظ ، على مر القرون ، أموراً في المجتمعات المختلفة صارت بالتراكم وبالتدريج من مأثور الكلام ، ومنها ما

(١) ولد نيكولو مكيافيلي في فلورنسا سنة ١٤٦٩ ، وانتهى من كتابة «الأمير» في سنة ١٥١٣ ، لكن لم يطبع إلا في سنة ١٥٣٢ ، أي بعد وفاة صاحبه في سنة ١٥٢٧ . وفي التراث العربي ما يشبه «الأمير» مثل كتاب «الإشارة إلى أدب الإمارة» للمرادي القيرواني ، وكتاب «التاج» للجاحظ ، و«سراج الملوك» «للطرطوشي ، و«كليلة ودمنة» الذي ترجمه ابن المقفع .

دفع مفكرين وفنانين إلى الكتابة مثل مكيافيلي ، وإلى تدوين أمور مماثلة صارت جزءاً من تفكير عام واتخذت المثال الأدبي . أما الأمثال التي عاشت بشكل غير أدبي فنجدها لدى أنيس فريحة ، أو في الأمثال المجمّعة في الأردن وسورية ومناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية . هذه الأمثال سجِّل (Record) لخبرة الإنسان . ولا يوجد سر خاص لدى مكيافيلي إلا أنه شخص لديه انطلاقة شعرية ، ويستطيع التعبير عن نفسه ، وقلمه ساخر ، ومن مأثره مقولة «الأسلم للحاكم أن تخافه الرعية منه بدلاً من أن تحبه» .

– كمؤرخ كيف كنت ترصد أحوال المرأة العربية في التاريخ القديم مقارنة بأوضاعها وبأحوالها في العصر الحالي؟

● لم أدرس هذا الموضوع . المرأة كإنسان هي كأي إنسان آخر . في فرنسا مثلاً كان لدى الملك زوجة لينجب منها الأولاد ، ولديه في الوقت نفسه عشيقات . يجوز أن أولئك النساء كنّ حاذقات وجميلات ويتحدثن جيداً ويستقبلن الزوار جيداً ، والغاية من وجودهن تزيين البلاط مثل مدام دو باري وغيرها . وفي الوقت عينه يعملن جواسيس له . هكذا كانت الأعراف أو «الموضة» آنذاك ، الآن «الموضة» مختلفة . إن كل إنسان يأخذ جنساً من البشر ويعتبره مختلفاً عن بقية الأجناس كالأبيض والأسود ، هو إنسان غير سوي .

– هذه الأسئلة تطرح اليوم في سياق ما يسمى حرية المرأة ؛ لأن الحرية في مجتمعاتنا العربية ، ولا سيما حرية المرأة ، محدودة . وثمة مَن يعتقد أن وضع المرأة في الإسلام كان أفضل بكثير من وضع المرأة في الجاهلية ، أي أن الإسلام منح المرأة حريات وحقوقاً كثيرة . وهناك من يناقض هذه الفكرة ويعتقد أن الإسلام قيد حياة المرأة ، وأن أحوالها في الجاهلية كانت أفضل . وهذا ما قاله منصور فهمي[1] على سبيل المثال .

● إن أي قانون أو تشريع أو أي طريقة تفكير أو أي سرد تاريخي أو أي سرد غير تاريخي ينحي المرأة جانباً يكون جانياً على طبيعة الكون .

---

(١) ولد منصور فهمي في سنة ١٨٨٦ ، ودرس في السوربون على دوركهايم . وأعد أطروحته للدكتوراه عن «أحوال المرأة في الإسلام» وناقشها في سنة ١٩١٣ . وقد مُنع من التدريس في جامعة القاهرة بعد عودته من باريس جراء محتوى هذه الأطروحة . لكنه عاد إلى التدريس بعد ثورة ١٩١٩ ، ولم ينشر أطروحته إلى أن نشرتها «دار الجمل» في كولونيا بألمانيا سنة ١٩٩٧ . وقد توفي منصور فهمي سنة ١٩٥٩ .

المسيحية والإيمان والعلم

- أود أن أعرض عليك بعض الأسئلة الشخصية . ولكنها ليست أسئلة شخصية تماماً . على سبيل المثال ، ذكرت في مذكراتك «طائر على سنديانة» أنك كنت ترتاد الكنائس في يفاعتك وشبابك . هل ما زلت مؤمناً؟

● الإيمان تجربة خاصّة إلى درجة لا يمكن التعبير عنها . تربيت تربية بروتستانتية . وفي الوقت نفسه ولدت لعائلة ذات عقل منفتح . فوالدي حين كنت في الثانية عشرة طلب مني قراءة القرآن ، وجاء بمن يعلمني القرآن . وحتى الآن ، وأنا لست حافظاً القرآن ولكنني أعرف ما يقوله ، إذا قال لي إنسان لقد ورد في القرآن كذا وكذا أقول له نعم أو لا . كنت أذهب إلى الكنائس الكاثوليكية ، لماذا؟ لا أدري . بل كنت أشعر أنني متشوق إلى نوع من العبادة التي تتضمن طقوساً أكثر من طقوس الكنائس البروتستانتية .

- حيث لا أيقونات ولا صور أو لوحات .

● الآن أنا لا أذهب إلى الكنيسة ، مع أنني أحب الذهاب إلى الكنيسة ؛ لأن الكنيسة بعيدة . وفي يوم الأحد لا أخرج من البيت ؛ فهو يوم راحتي .

- أقرب كنيسة للبروتستانت تقع في منطقة رياض الصلح .

● رب ربّك لا يستطيع أن يأخذني إلى منطقة رياض الصلح اليوم الأحد . أنا أحب الذهاب كثيراً إلى الكنائس ، وأحب ممارسة بعض الطقوس لأنها تعني لي شيئاً داخلياً مثل الشركة المقدسة ، وهي أن تشترك مع غيرك في طقس الخبز والخمر .

- هي شركة مع المسيح .

● نعم ، شركة مع المسيح . هذه الشركة تعني لي شيئاً ما داخلياً لا أدري ما هو ، ولم أقف عنده طيلة حياتي ، ولكنها تعني لي شيئاً في نهاية المطاف . كانت هناك كنيسة قريبة من منزلي ، لكنها ليست تماماً ككنيستنا . كان فيها قليل من الطقوس ، إنها كنيسة لاتينية ، وهي الأقرب في الطقوس إلى البروتستانت . كنت أذهب إليها ، وشاهدني شخص لا أعرفه ، وكان كتاب «البحث عن يسوع» قد صدر . فقال لصديق لي متعجباً ، وكان قرأ «البحث عن يسوع» : كيف يكتب كمال الصليبي هذا الكتاب ويأتي إلى الكنيسة؟ فقال له صديقي : هذا أمر وذاك أمر آخر . كنت أشعر في بعض الأحيان ، كما يشعر كل إنسان بالحاجة إلى الصلاة .

- لكنك لا تصلي .

● أصلي . الصلاة لدينا دعاء . هي اختلاء مع الله ، وأنا أتكلم معه كما أتكلم معك ، وأقول له ما أريد . وأتحدث معه كأنني أتحدث إلى نفسي وأقول الحقيقة . هذه هي الصلاة لدينا . ولهذا السبب يقولون إن الإنسان إذا مارس الصلاة من هذا النوع تصبح سلوكياته جيدة لأن من يخاطب الله لا يكذب . ولماذا الكذب؟ الله لا يجبره على الصلاة . أنت تختار أن تحاكي ربك لتقول له الحقيقة عن الأمور التي قمت بها ولم يكن عليك القيام بها ، وعن أمور لم تقم بها وكان عليك القيام بها .

- لا تستطيع أن تكذب عليه ، لأنه يعرف كل شيء ويعرف الحقيقة؟

● نعم . لكنك لست مجبراً . أنت تقوم بها لراحة ذاتك . أحياناً تشعر بأنك لا ترغب في الصلاة في مخدعك ، بل ترغب في الصلاة في معبد ، فتدخل إلى أي كنيسة أو إلى أي معبد ، وتجلس وتصلي .

- إن عدم اهتمامك بالطقوس لا يعني أنك غير مكترث بالإيمان الديني . وأقصد بالطقوس الذهاب إلى الكنيسة والاعتراف . . . إلخ .

● أقول إن وضعي يتلخص بعدم ممارسة الانضباط الروحي ؛ لأن الإيمان بالانضباط الروحي يصبح شيئاً آخر . أنا لا أؤمن بأشياء خارجة عن الطبيعة . غير أنني حين أتحدث إلى الله أكون قد قمت بالاعتراف . إنها أشياء معقدة جداً ومن الممكن أن يكون من الأفضل للإنسان ألا يفكر فيها ، بل ليأخذها على السجية . ولكنني لا أستطيع القول إنني شخص غير ملتزم إطلاقاً . أنا ملتزم ، ولكن بحسب اختياري وبحريتي الكاملة وعلى طريقتي الخاصة[1] .

---

(١) الكنيسة والعقائد الدينية في الغرب أصبحت مثل المهدئات النفسية التي تساعد الفرد على تحمل الاضطرابات والتوترات الناجمة عن التطور التكنولوجي الهائل ، وعلى مواجهة التدمير الكبير الذي لحق بكيانات الأفراد والجماعات . ومع أن العالم الإنكليزي المعروف ستيفن هوكينغ جزم بأن الفيزياء الحديثة لا تترك مجالاً للإيمان بأي خالق للكون (أنظر مقالته في جريدة «التايمز» اللندنية ، ٢٠١٠/٩/٢) إلا أن نظرية دايفيد شتراوس الناقدة لفلاسفة الأنوار ما زالت هي السائدة في الفكر الغربي . ويعتقد دايفيد شتراوس أن معجزات المسيح مثلاً لا يمكن معالجتها ==

- المفارقة اليوم عدم وجود تجارب روحية مهمة لا في الإسلام ولا في المسيحية. هناك مسيحيون لامعون بلا ريب...

● لامعون بماذا؟

- لامعون في أمور علمية وأدبية مثلاً. لكن ألمعية هؤلاء لا تنطلق من الدين، ولم نقرأ لرجال متدينين تجارب روحية ذات شأن. كأن التجربة الدينية في المسيحية والإسلام تنطفىء لمصلحة الشعائر الدينية. أي أن الإيمان أصبح يعني الذهاب إلى المسجد أو إلى الكنيسة. خذ مثلاً تجارب القديس أوغسطين؛ لديه تجارب

== بالعقل أو بالمنطق العلمي باعتبارها حدثت فعلاً أم لم تحدث، بل باعتبارها أساطير تعبر عن تجربة دينية أو عن فلسفة، أي أنها «حقائق» داخلية في نفوس المؤمنين بها، مع أنها كحقائق تاريخية مشكوك في صحتها إن لم تكن غير صحيحة تماماً. وماركس بدوره رأى أن الأفكار لا تعالج كانعكاس ميكانيكي للشروط الاجتماعية كما كان يروج ماديو القرن الثامن عشر، كما لو أنها مثل علاقة البول بالكليتين. ولهذا رأى، وهو الملحد، «ان الدين إنما هو النظرية العامة لهذا العالم؛ خلاصته الموسوعية ومنطقه في صيغته الشعبية؛ مناط شرفه الروحي وحماسته وجزاؤه الأخلاقي وتكملته المهيبة وأساس عزائه وتبريره الشامل. إنه التحقق الخيالي لكينونة الإنسان التي لم تتحقق في الواقع. إن الشقاء الديني تعبير عن الشقاء الواقعي، وهو، من جهة أخرى، احتجاج عليه. فالدين زفرة الإنسان المقموع، وقلب عالم لا قلب له، وهو روح لشروط إجتماعية لا روح فيها. إنه أفيون الشعوب» (أنظر: ماركس، نقد فلسفة الحق عند هيغل).

روحية ذكرها في «الاعترافات»[1]، وهي تجارب مدهشة. الآن لا نقرأ، بحدود علمي، ما يشبه ذلك. ولا يوجد مَن يكتب تجاربه الدينية. إن تجارب الشك والإيمان والإلحاد ما عادت موجودة. لماذا غابت هذه الجذوة في المسيحية والإسلام؟

● عندما نقرأ تجربة الحلاج على سبيل المثال، نعثر على تجربة فريدة في الألم وفي الإيمان. وعندما نقرأ ابن عربي نجد أن هناك معاناة هائلة ومكابدة[2]. اليوم لا يوجد شيء من هذا. نقرأ خُطب الجمعة فنجدها مصائب. أنت سألتَ سؤالاً مبدئياً يجب أن نجد جواباً عنه. ولكن المشكلة أنني لا أفكر كثيراً في هذه الموضوعات، ولا يوجد لدي

(١) ولد القديس أوغسطين في سنة ٣٥٤، وصار أسقفاً لإفريقيا. توفي في سنة ٤٣٠، وله «الاعترافات» و«مدينة الله». وقد ترجم الخوري يوحنا الحلو «الاعترافات» وصدرت عن دار المشرق في بيروت سنة ١٩٩١.

(٢) ابن عربي هو محمد بن علي الطائي. ولد في الاندلس وتوفي في دمشق سنة ١٣٤٠. وضريحه في دمشق قائم في سفح قاسيون في المكان الذي بات يعرف بـ «الشيخ محيي الدين». من مؤلفاته المشهورة «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و«ترجمان الأشواق». يقول عنه الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، وهو من شيوخ الظلام، إنه «أكبر زنديق عرفه تاريخ الإسلام بل تاريخ الإنسانية في جميع عصورها» (أنظر جريدة «القبس» الكويتية، ٢٠٠٦/٥/١٩). وفي سنة ١٩٨١ طالب أعضاء في مجلس الشعب المصري بمصادرة كتاب «الفتوحات المكية» وإحراق «ألف ليلة وليلة». أما الحلاج فهو الحسين بن منصور المولود في فارس. اعتنق التصوف وكان يخلو مع التستري والجنيد. اتهم بالزندقة والقول بالحلول، فسجن ثماني سنوات في بغداد ثم عُذب وصُلب في سنة ٩٥٣. له كتاب «الطواسين».

جواب جاهز، لأن كل ما أقرأه من مواقف أو أفكار صادرة عن اتجاه ديني أجده غير مقنع وأجد فيه سفسطة وتصنُّعاً، وهناك كثير من مصائب الكهنوت، مع أن الإسلام لا كهنوت فيه من الناحية المبدئية.

– لكن صار فيه كهنوت ومصائب مدوية.

● نعم. وأي شيء فيه كهنوت بات مصيبة. أنا أعطاني مارتن لوثر[1] إبرة للمناعة.

– صار لديك مناعة إذاً؟

● نعم. لدي مناعة. أنا أحترم الكاهن اجتماعياً، ولا أسير أمام الكاهن، بل إلى جانبه. لا أحب أن أتحدث إلى الكاهن باسم الله، لكنني أخفض له جناح الاحترام. ولكن لا أعتقد أن لديه سلطاناً روحياً علي. هذا هو الكاهن خاصتي.

– في البروتستانتية لا يوجد كهنة.

● لا، لا يوجد.

– ورجل الدين يتزوج.

● عندنا راعٍ، وليس كاهناً. والراعي يهتم بالأبرشية، والعلمانيون هم الذين يؤلفون لجنة لادارة شؤون الرعية، ويقررون أسلوب التعامل مع الراعي، ويدفعون له راتباً، ويشترون له بيتاً وسيارة.

– لدي أصدقاء من رجال الدين وهؤلاء أحبهم وأحترم

---

(1) راهب ومفكر ألماني ولد في سنة ١٤٨٣، وأحدث انقلاباً هائلاً في المسيحية عندما انفصل عنها في سنة ١٥١٧ ورفض سلطة البابا على منح الغفران، ورفض التبتل وإكرام القديسين وغير ذلك. أسس البروتستانتية في ما سمي حركة «الإصلاح الديني». توفي في سنة ١٥٤٦.

أفكارهم، لكن هؤلاء قلّة قليلة جداً. أما بقية رجال الدين فلدي موقف منهم. هؤلاء على كثرتهم، لا هم لهم إلا بذر الفرقة بين الناس.

● أكيد. أكيد. في هذا لا أختلف معك. في سفر الأنبياء في العهد القديم هناك وصف للمسيح المنتظر جاء فيه: قصبة مرضوضة لا يَكسِر. وفتيلة مدخّنة لا يطفىء. لدينا كنيسة تركها لنا المؤسسون لتجمعنا عند الضرورة وتعرفنا إلى الآخر. الآن، إذا حافظنا عليها تبقى، وإذا لم نحافظ عليها لا يوجد ما يعوّض عنها في ما بعد. لذلك، وحتى لو كانت فتيلة مدخّنة ورائحتها تفوح منها، يجب ألا نعصاها. ويجوز أن تكون قصبة مرضوضة... وإذا أمسكتها تجرحك. ولكن لا نكسرها.

– هذه حكمة.

● المهم أن نحافظ على هذه المؤسسة. مع أن هذه المؤسسة مكللة بالشكوك في إخلاص القيّمين عليها، والمقصود إلى ذلك إخلاصهم الروحي، وفهمهم للروح. الإيمان بالدين كما لو أنني مواطن لبناني يطيع القانون اللبناني، وأنزعج إذا رأيت شخصاً لا يطيعه. والأمر نفسه في الدين. أنا أتّبع بقلبي هذه الطريقة في الإيمان وفي التعامل مع ضميري الشخصي وضميري الاجتماعي.

– في هذا السياق تبدو المسيحية في البلدان العربية، ولا سيما في العراق ومصر وبلاد الشام، كأنها فقدت روح التجدد مقارنة بما كانت عليه في أوروبا، وفقدت روح التمرد أيضاً. المسيحيون كانوا متمردين على الأفكار القديمة، ومناضلين استشهدوا ودفعوا أثماناً غالية. هكذا يخبرنا التاريخ. لكن المسيحية في بلادنا التي أنشأت

حضارات مهمة وكانت وارثة جميع عقائد الخصب المقدسة الجميلة، راحت، مع دخول الإسلام إلى هذه البلاد، تفقد روح التمرد والتجدد. هل ترى رابطاً بين فقدان المسيحية روح التجدد والتمرد ودخول الإسلام إلى هذه البلاد؟

● حتى نفكر في هذا الموضوع علينا أن نذهب إلى البدايات. أتصور أن الديانات ظهرت في زمن كان الدين يعني التحكيم، أي القضاء بين الناس. أي أنك لا تستطيع أن تفكر إلا بكلام كاهن. ثم أتى وقت صرتَ تستطيع أن تفكر بطرق أخرى. وعندما صار في إمكان الإنسان التفكير بطرق أخرى، بات على المؤمنين المحافظة على الموجود من الدين حتى لا ينال منه أحد، ولا يتورعون عن الدفاع عنه، في الوقت الذي كان البعض يفكّر في آخر نظرية في الاقتصاد أو في آخر نظرية في الفيزياء مثل نظرية الكم أو الجينات. هنا يثور السؤال: هل يحق للإنسان استنساخ إنسان مثله. في هذا النطاق أدخلت الدين في النقاش، علماً أن الدين ليس إلاّ ضميرك. الدين لا يعلّمك ولا يقول لك استنسخ أو لا تستنسخ. الدين مدارس، كل واحدة لها منطقها. المهم هو الضمير. هل ضميرك يقبل أن يصير الاستنساخ مبدأ يطبق عالمياً أو لا؟ أنا أقول هذا قياساً على الفلسفة. منذ زمن أرسطو أو فيثاغورس، كانت الرياضيات فلسفة وعلوم الأشياء (الفيزياء) فلسفة أيضاً. والكيمياء كانت فلسفة، والتاريخ فلسفة. ثم راحت هذه الموضوعات تستقل عن الفلسفة بالتدريج، حتى الفلسفة باتت هي كل ما تبقى من ذلك التاريخ. غير أنني اليوم أستطيع العيش بلا فلسفة، بينما لم يكن من الممكن العيش بلا فلسفة في زمان معين. الآن إذا أردت أن تتفلسف فهذا أمر حسن. ولكن أن تعيش بلا فلسفة، فهذا

أمر ممكن وطبيعي. وينطبق الأمر نفسه على الدين. إذا قلنا الدين ضمير، وهو لدي ضمير حقاً، فيجب ألا يصدر عن الضمير أي شيء سيء. أصبح لدينا طرائق كثيرة للتفكير وللعمل. ولهذا صار الدين حالة ضمن أمور أخرى كثيرة. أما إذا كان بعضهم يريد أن يكون الدين هو كل شيء، فما عليه إلا أن يقيم دولة لها قوانين تجعل من الدين الأمر الوحيد. لكن، كم ستحيا هذه الدولة؟ وإلى أي مدى؟

– هذه دولة فاشلة، الدولة الدينية دولة فاشلة. وفي هذا السياق أريد توضيح سؤالي. إن أخناتون[1] مثلاً، أتى بفكر ديني متمرد على دين أسلافه. المسيح نفسه كان متمرداً على الديانة اليهودية. وأقصد بذلك أن هناك تجديداً وتمرداً في الوقت نفسه. اليوم في بلادنا هناك كثير من المسيحيين قدموا أفكاراً تجديدية أمثال ميشال عفلق وأنطون سعادة وقسطنطين زريق... إلخ. هؤلاء قدموا أفكاراً في الفكر والسياسة والمجتمع ليس بصفتهم مسيحيين بل بصفتهم مواطنين. ولا نستطيع اعتبارهم مجددين في الفكر

(١) هو صاحب أهم انقلاب في تاريخ مصر الديني، فقد انقلب على عبادة أمون (أي الإله غير المنظور) إلى عبادة الإله المنظور (أي أتون أو قرص الشمس). اسمه الأصلي امنحوتيب الرابع. عاش طفولته في قرقميش في شمال سوريا، وهي جرابلس اليوم التابعة لحلب، ثم عاد إلى طيبة في مصر وهو في السادسة عشرة. شاد معبداً في الكرنك للإله أتون، ثم انتقل إلى تل العمارنة وغيَّر اسمه إلى «أخناتون» فحاربه كهنة أمون، ثم أرغم على التنازل عن العرش لابنه توت عنخ أمون، ونفي إلى سيناء، وتوفي في سنة ١٣٥٨ق. م. ويعتقد ان سيرة أخناتون هي نفسها أسطورة أوديب بعدما جرى تحويرها في بلاد الإغريق.

الديني المسيحي ، بل قدموا أفكاراً في المجتمع والسياسة والثقافة . . . إلخ . لكن ، ما عدنا نرى مسيحيين يجددون الفكر الديني . هذا ما قصدته تماماً . والأمر نفسه في الإسلام . هل هناك من يناقش فكرة الوحي مثلاً؟ لا أحد يناقش فكرة الوحي على الإطلاق ، أو فكرة من الذي كتب القرآن ، أو شخصية جبريل ؛ أهي حقيقة أم متخيلة؟ أو قصة الإسراء والمعراج .

● لكن الإنسان له الحق في أن يؤمن بالوحي أو بغيره من الأمور .

– أو لا يؤمن . ففي أوروبا ، مع شيوع البروتستانتية ، كان المفكرون يناقشون عُذرية مريم وبشرية المسيح وأسطوريته وتاريخيته ، ولم يكن هناك قيد على الأفكار . أما في بلادنا فلا نجرؤ على مناقشة المسلّمات .

● هنا يجب أن ترى طبيعة النظام السياسي .

– لأننا لا نستطيع طرح هذه الموضوعات على النقاش الحر والعلمي ، نحن نحتاج إلى فولتير أو مارتن لوثر يستطيع أن يخرق هذا العماء ويطرح هذه الأمور للنقاش .

● تقول إننا نحتاج إلى فولتير أو مارتن لوثر . لكن يجوز أننا بطبيعتنا لا نحتاج إلى فولتير ولا إلى مارتن لوثر ، بل يلزمنا شيء آخر . إن قدرة مجتمعنا على مواجهة تساؤل معقد وصعب كهذا تتوقف على ما يلائمنا . فولتير جاء إلى بلاد فيها إمكان التحدث بحرية ، مع أن الكنيسة كانت تجرِّم هذه المقالات .

– تجرم وتتصدى لها ، لكنها لا تقتل القائلين بها .

● أحياناً ربما تقتل . لقد قام مارتن لوثر بانقلاب فظيع . وأشعر أن مارتن لوثر أساء إلى المسيحية . ولأنني ، في النهاية ، نصراني ،

ونصرانيتي تعود إلى أيام المسيح إذا لم تكن قبل ذلك ، فأنا لا أعتبر المسيحية ثورة على اليهودية لأن المسيح لم يكن يهودياً .

– صحيح ، لم يكن يهودياً . هو من الجليل ، جليل الأمم .

● لم يكن يهودياً ، لأن المسيحية هي شقيقة اليهودية . أي انها دين إسرائيلي[1] . في أي حال ، أنا مَدين بحريتي الشخصية لمارتن لوثر . هناك ناس صاروا مدينين لعصبيتهم لمارتن لوثر . وهناك أناس صاروا مدينين لبغضهم مارتن لوثر .

– هذا ما يسمى تسييس الدين ، أي أن الدين صار في خدمة الحاكم .

● كما أقول لك ، عندما كان الدين هو الطريقة الوحيدة للتفكير كان شيئاً ، والآن عندما ما عاد على ذلك النحو صار مسيّساً . عليك أن تجد له محلاً في المجتمع . والكاهن نفسه أصبح سياسياً .

– أو في خدمة السياسة .

● أو في خدمة السياسة . صحيح .

– هذا ما وقع للمسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين بن هيلانة على الأقل .

● هذا حصل عالمياً . لكنني أعتقد أن كثرة التفكير في هذه

---

(١) يفرق كمال الصليبي اليهود عن الإسرائيليين ، وهو يرى أن بني إسرائيل هم قبيلة عربية كانت تقيم في منطقة عسير وبادت ثم اندثرت ، وتفرق ابناؤها في القبائل الأخرى . أما اليهود فهم من اعتنق الدين الذي نشأ في بني إسرائيل ، واعتنقه كثيرون من القبائل العربية الأخرى . وبعد اندثار بني إسرائيل استمر الدين اليهودي وأتباعه الذين صاروا يدعون يهوداً .

الموضوعات غير مفيدة . الوعي بها مفيد ، لكن كثرة التفكير فيها غير مفيدة .

– إن الحاجة إلى التفكير فيها ناجمة من كون السلطات الدينية في بلادنا العربية تكافح الأفكار التجديدية ، وتقف ضد الجديد . إن مفكراً حراً مثل فرج فودة[(١)] في مصر لم يتورع المتعصبون دينياً عن اغتياله . ونجيب محفوظ حاولت الجماعات الإسلامية اغتياله . الجماعات الدينية حتى الآن لها سطوة كبرى على عقول الناس ، فهم يفتون بهذا الاتجاه تارة ، وفي الاتجاه المعاكس تارة أخرى ، والناس ضائعون . وثقافة الناس ما زالت تدور على ثلاثة مصادر : خطبة الجمعة ، والتلفزيون ، ومناقشات المقهى . لهذا فإن فصل الدين عن السياسة أمر مهم في بلادنا العربية ، والعلمانية تحديداً هي ما نقصد إليه . والسؤال الملحّ اليوم هو : كيف نستطيع أن نُقيّد يد الحاكم بالدستور؟ وكيف نستطيع أن نُقيّد

---

(١) ولد فرج فودة في بلدة الزرقاء بمحافظة دمياط في ١٩٤٥/٨/٢٠ ، وحاز الماجستير في العلوم الزراعية ثم الدكتوراه في الاقتصاد الزراعي من جامعة عين شمس . انتمى إلى حزب الوفد ، لكنه استقال منه اعتراضاً على تحالف الوفد مع الإخوان المسلمين في الانتخابات التشريعية التي جرت في سنة ١٩٨٤ . أصدرت «جبهة علماء الأزهر» بياناً في سنة ١٩٩٢ تكفره وتوجب قتله بتهمة العَلمانية ، بعدما شن حملة صحافية ضد الجماعات الإسلامية والعنف الديني ، ورفض فكرة الدولة الإسلامية وتطبيق الشريعة ، ودافع عن الاختلاط في المدارس ، ووقف ضد البرامج الدينية في التلفزيون الرسمي . اغتيل في القاهرة في ١٩٩٢/٦/٨ بعدما أفتى عمر عبد الرحمن بقتله . وكان الجاني عضواً في «جماعة الجهاد الإسلامي».

الجماعات الدينية حتى لا تتدخل في السياسة؟

● لا يمكنك القيام إلاّ بالممكن . وإلا تنطوي على نفسك وتعيش حياتك الذاتية ، أو أن تتفاعل مع الناس بطريقة ما . هذا هو الممكن وهذه طريقة في الحياة ، وهي الطريقة المفضلة في بلادنا . هنا منبع التفكير الديني . وبين بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية والعراق نشأت الديانات كلها . وما أنا متأكد منه أن هناك طرقاً أخرى للتفكير وهي قوية في الوقت نفسه . إن أبسط كلام هو من يبدأ كلامه بالقول : «الله يقول» ، بينما ينهمك العلماء في كشوف الحمض النووي (DNA) . واليوم يتحدث العلماء عن أن الكون يشبه الذرة في التكوين ، أي أنه مبني على وسط positive (إيجابي) يدور حوله عالَم Negative (سلبي) ، أي أنه مثل النواة الإيجابية والإلكترونات السالبة . وأبعد من ذلك فهناك المادة الافتراضية التي هي Antimetal (مضادة للمادّة) ، والتي تتحرك بشكل دوراني حول وسط ذي نواة سالبة ومحيط ذي تكوين إيجابي . ثم يقولون أشياء أخرى مخيفة ، أي أن من الممكن أن يكون الكون كله مؤلفاً من كون positive أي كون عادي ، وكون مضاد للمادة Antimetal . وفي حال وقوع أي احتكاك بينهما يفنى الجميع .

– مثل النتيجة الحتمية لتقلص الكون بحسب نظرية Big Bang .

● هذا أمر آخر ، لكنه قريب من Big Bang . الآن هل يستطيع هذا الإنسان الذي يفكر علمياً بهذه الأمور أن يتغلب على الإنسان الذي يفكر بطريقة دينية؟

– العلم تغلب على الكنيسة في نهاية المطاف ، وأصبح غاليلو

أقوى من البابا لاحقاً .

● ربما أساء غاليلو إلى البشرية ، وربما كانت البشرية أكثر سعادة مما هي عليه اليوم من دون غاليلو . ولكن ، ما إن ظهر غاليلو حتى صار لا بد أن ينجح في أفكاره .

- لدي صديق وهو روائي معروف ، ولعلك قرأت له ، هو غالب هلسا[1] .

● أعرف كثيرين من عائلة هلسا الأردنية .

- كان غالب هلسا في أواخر أيامه يعيش في دمشق ، ولما قرأ خبراً عن أن الشمس ستنطفىء بعد نحو خمسة ملايين سنة ، وأن المجرة الشمسية ستفنى ، أصيب بالكآبة ، ولم يخرج من منزله طول ستة أشهر ، وبقي في أثناء ذلك غارقاً في التفكير في مصير الكون ، وفي أن مجرّتنا والحضارات المتعاقبة التي شهدتها الأرض ستفنى يوماً ما . وقد راح بعضهم يخفف عنه بالقول إنه لن يكون موجوداً

---

(١) ولد في قرية ماعين بالأردن في ١٩٣٢/١٢/١٨ . انخرط في صفوف الحزب الشيوعي في أوائل خمسينيات القرن العشرين ، وسجن في معتقل الجفر الصحراوي . حاز جائزة القصة القصيرة في الأردن وفلسطين سنة ١٩٤٦ . غادر عمان إلى القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ودرس الصحافة في الجامعة الأميركية في القاهرة . عاد إلى الأردن سنة ١٩٥٦ ، لكن لم يلبث أن عاد إلى القاهرة التي عاش فيها حتى سنة ١٩٧٧ حين طرد إلى بغداد جراء مواقفه السياسية ، ومعارضته زيارة أنور السادات القدس . أقام في بغداد ثلاث سنوات ، ثم جاء إلى بيروت ليغادرها في سنة ١٩٨٢ إلى عدن ثم إلى دمشق . توفي في دمشق في ١٩٨٩/١٢/١٨ ، وهو اليوم نفسه الذي ولد فيه . وفي اليوم التالي نقل جثمانه إلى الأردن .

بعد خمسة ملايين سنة . لكن الخبر ، في حد ذاته ، يشير إلى أن العلم يصيب الناس بالكآبة في كثير من الحالات . في أي حال ، لو عدنا قليلاً إلى الإسلام نلاحظ أن الإسلام نشأ في منطقة صحراوية تخترقها خطوط التجارة الدولية . هل كان لهذا المنشأ الصحراوي ـ التجاري شأن في طمس ما كان موجوداً قبل الإسلام من حضارات وثقافات؟ وهل أن الإسلام ذا المنشأ الصحراوي ـ التجاري ، والذي غمر مناطق الزراعة في العراق والشام ، طمس ما قبله؟ ويقال أيضاً إن العرب لم يعرفوا الملحمة ذات الطراز الإغريقي ، ولم يعرفوا كذلك الأسطورة . بينما يرى بعضهم أن الملحمة والأسطورة كانتا موجودتين في الثقافة العربية ، وأن للعرب أدباً ملحمياً وأساطير وديانات كثيرة ، لكن الإسلام طمسها . ماذا تقول في هذا الموضوع؟

● إذا كان الإسلام طمسها ، فكيف عرفوا أنها كانت موجودة؟

- هناك بقايا وإشارات تدل على بعض هذه الملاحم كقصة الزير سالم مثلاً . وفي أي حال ، أنا أعرض السؤال وأنت المؤرخ الذي يستطيع أن يجيب .

● أولاً ، الإسلام لم يظهر في بيئة صحراوية ، بل ظهر في الحواضر ، وعاصمته كانت حاضرة .

- تقصد الشام؟

● لا . العاصمة الأولى هي مكة ، وكانت حاضرة .

- مكة مدينة تجارية واقعة على خطوط التجارة الدولية في تلك الحقبة . ومن الصعب اعتبارها مدينة حاضرة كدمشق مثلاً ، أو حلب ، أو بغداد في ما بعد .

● مكة كانت مدينة مهمة جداً آنذاك ، وهو ما جعل جزءاً كبيراً من العالم يستمر في تقديس مكة . أما هذا التفلسف عن أصل الإسلام ونشأته فليس له ما يبرره . فالحقيقة هي الشيء الموجود . وإذا لم تكن مكة على هذا القدر من الأهمية ، فلا يغير هذا الأمر أي شيء من التاريخ . فالمهم أن حدثاً جديداً انبثق في المنطقة اسمه الإسلام .

– قبل الإسلام كانت هناك المسيحية واليهودية والصابئة[1] .

● وديانات كثيرة أُخرى ، منها ما اندثر ، ومنها ما بقي حتى اليوم . الإسلام جاء ثم حل في محل نوع من المسيحية هي النصرانية ، والتي أقول إنها ديانة عيسى ابن مريم . وقد بقيت اليهودية العربية والديانات الأخرى عربية ، والمسيحية على أنواعها كانت عربية كالنساطرة واليعاقبة والملكية[2] . وبمرور الزمن صارت أعداد المسلمين

---

(1) الصابئة المندائيون فرقة قديمة تعظم يوحنا المعمدان . ويسمون «المغتسلة» لأن طقوس الاغتسال بماء الأنهار ، أو العمادة ، تعتبر ركناً أساسياً في عقيدتهم . وهم طائفة غنوصية تتشابه في عقائدها مع الفرقة الأسينية التي نشأت عند أطراف البحر الميت . ويعتقد البعض أنهم جاؤوا إلى العراق من القدس في سنة ٧٠ ميلادية ، فهم أول اللاجئين الفلسطينيين . وكلمة مندائي تعني العارف ، من كلمة «مندا» الآرامية . أما صبا في اللغة الأكادية فتعني ارتمى في الماء ، أو غطس ، أو صبّ الماء ، أي تعمد . والصابئة يتكلمون الآرامية ، وكتابهم المقدس هو «سيدرا ربا» أي الكتاب العظيم . ومن أشهر أعلامهم الشاعرة لميعة عباس عمارة والشاعر عبد الرزاق عبد الواحد .

(2) أصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) هم الذين يعتقدون أن المسيح هو الله بصورة إنسان . أما أصحاب الطبيعتين فيقولون إن المسيح هو إله وإنسان معاً . ==

تتضاعف قياساً على أعداد المسيحيين واليهود . وبما أن كل طرف ظل متمسكاً بكيانه على أساس عقيدته الدينية ، فإن الأمر اقتضى أن يكون للأكثرية الغلبة في طرح أفكارها الأساسية كي يبقى المجتمع ممكناً . وكان الطرح الأساسي في هذا الشأن هو أن للفئات غير الإسلامية حق التمتع بحريتها في إدارة شؤونها الداخلية . أما في ما عدا ذلك فعليها أن تتبع الشريعة الإسلامية .

– هذا هو منطق المُتغلِّب آنذاك .

== وأسس مذهب الطبيعة الواحدة يعقوب البردعي ، بينما أسس مذهب الطبيعتين نسطوريوس الذي كان راهباً انطاكياً ، وأصبح بطريركاً على القسطنطينية في سنة ٤٢٨ ميلادية ، وكان يقول إن المسيح إنسان في الأساس ، أي حين ولد ، لكن الألوهة سكنته إلى يوم صلبه . وعلى الصليب صار إنساناً متألماً ، ولا يجوز أن نقول عن مريم إنها أم الله ، بل هي أم المسيح فقط . والقائلون بالطبيعة الواحدة هم الأقباط والسريان اليعاقبة ، أما القائلون بالطبيعتين فهم الملكانيون في سوريا أو الملكيين نسبة إلى الامبراطور قسطنطين ملك بيزنطة . وقد عقد مجمع نيقية المسكوني في سنة ٣٢٥ ميلادية وحرم بدعة آريوس وأعلن قانون الإيمان (سر الثالوث) . ثم عُقد مجمع أفسس في سنة ٤٣١ ميلادية ونبذ تعاليم نسطوريوس وأعلن مريم العذراء أم الله . وعقد مجمع خلقيدونيا في سنة ٤٥١ ميلادية الذي حرم المونوفيزية (أصحاب الطبيعة الواحدة اللاهوتية من أتباع أسقف الرها يعقوب البردعي) . أما آريوس فهو ليبي الأصل ، ولد في سنة ٢٥٦ ، ودرس على لوقيان الأنطاكي ، وسيم كاهناً في مصر . أنكر اللاهوت في المسيح ، واعتبره الكلمة Logos ، وأنه مخلوق ، فكفره مجمع عقد في الاسكندرية خصيصاً لمواجهة أفكاره ، فهرب إلى فلسطين ، وهناك كتب كتابه «المائدة» .

● تماماً . وهذا الرأي استمر حتى القرن التاسع عشر . وفي القرن التاسع عشر حدثت تغييرات جذرية ضعضعت الأحوال . وما عاد السؤال : هل على الإنسان أن يحافظ على كيانه بحسب انتمائه التقليدي ـ الديني أم لا ؟

– الدافع لسؤالي هو أن البعض رأى في الإسلام الذي نشأ في مدينة تجارية مهمة هي مكة ، مع أنها واقعة في وادٍ غير ذي زرع ، أي ليس لديها أي إنتاج زراعي ، إحدى موجات البداوة التي كانت تتكرر غزواتها دورياً للبلاد الخصيبة ، على غرار غزوات بني هلال . لكن لو لم تتوافر لهذه الموجة مدينة حاضرة مثل دمشق لكانت اندثرت أو اندمجت موجاتها البشرية بالمجتمعات الموجودة في العراق أو الشام . لكن وجود حاضرة مثل دمشق التي قُيِّض لمعاوية أن ينشىء فيها دولة متينة هو الذي جعل الإسلام يعيش ، ويصبح نظاماً سياسياً . كيف تنقد هذا الرأي؟

● في التاريخ هناك فتوحات . وهذه الفتوحات لها أسباب وأقنعة مختلفة . يجوز أن تكون أقنعة دينية أو أقنعة تجارية . عندما تحدث الفتوحات يجري تنظيم الثروة الجديدة وتوزيعها . إن بداية الإسلام ، بحسب الرواية الإسلامية ، هي قصة هذه الثروة التي حملتها الفتوحات . فقد كانت مصدراً لكل هذه الفتن التي حدثت لاحقاً واستمرت طويلاً ، ابتداء بمقتل الخليفة عثمان بن عفان أو ما يسمى «الفتنة الكبرى» . وقد أتى وقت كان النمط الإسلامي ، بحكم الفتوحات ، يشبه كثيراً نمط دولة الروم . بعد ذلك تغيرت الأوضاع بزوال دولة الروم ، وتحول الترك والمغول إلى الإسلام . هذه الأمور حدثت بالفعل ، ولا يمكن القول إنها لم تحدث .

– لنتذكر أن النبي محمد خاطب تجار قريش بقوله : «ألا أدعوكم إلى كلمة تقولونها تدين لكم بها العرب ، وتؤدي لكم العجم الجزية! والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر» .

● بالطبع ، فالعامل التجاري كان حاضراً في الفتوحات الإسلامية .

السيرة والأصدقاء الأوائل

- أنت كتبت سيرتك «طائر على سنديانة» . هل تعتبر السيرة الذاتية مصدراً للتاريخ ، أم مجرد كتابة يُستأنس بها عند كتابة التاريخ؟

● لا . إنها مصدر للتاريخ .

- أَهي مصدر رئيس أم مصدر ثانوي؟

بل مصدر رئيس . لكن ، ثمة إيضاح بسيط ؛ فأنا لم أكتب سيرة ذاتية بل مذكرات Memories . ثم إنني لم أتحرَّ الدقة تماماً ، بل سردت الأمور كما أذكرها . ليس بالضرورة كما حدثت ، لأن ما يذكره الإنسان أمر ، وما حدث بالفعل أمر آخر . لقد كتبت مذكراتي باعتبار هذه الكتابة شأناً شخصياً جداً ، بحيث يصبح القارىء صديقي حين أقول له من أنا . الآن إذا «تفلسف» أحدهم ، وراح يجادل في هذا الحدث أو ذاك ، أو في مدى الدقة هنا أو هناك ، فهذا التفلسف يؤدي إلى صدور كتاب بشع . ومذكراتي التي كتبتها بعنوان «طائر على سنديانة» عبارة عن قصة من الماضي ، أي من التاريخ بقدر ما يكون التاريخ مجموعة مآثر Contributions يضعها أفراد .

- السيرة الذاتية Auto Biography يكتبها الشخص بعد مضي

فترة طويلة على وقوع الحدث . فهي ليست يوميات Diaries يكتبها صاحبها يوماً بعد يوم ، فتحافظ على حرارتها الحدثية . أما عندما يكتب شخص سيرته ، لنقل بعد ستين أو سبعين سنة من مولده ، فيكون هناك فجوة زمنية كبيرة بين وقوع الحدث وكتابته . لذلك أتفق معك بقوة على أن ما كتبه هذا الشخص أو ذاك في سيرته ليس بالضرورة أن يكون قد وقع بالفعل بالتفصيلات الصحيحة تماماً . ومن هنا منشأ التحفظ عن أهمية السيرة في كتابة التاريخ ؛ وإلى أي حد يمكن اعتبارها مصدراً رئيساً للكتابة التاريخية؟

● يمكن اعتبارها مصدراً رئيساً للتاريخ . فالسؤال في هذا الحقل يدور على فكرة «ما الحقيقة؟» .

- لكن الحقيقة نسبية .

● نعم نسبية . غير أن الحقيقة في نهاية المطاف صورة . وأقول هنا إن ما خلقته في مذكراتي هو صورة للعصر الذي عشت فيه بتغيراته ومن غير أي «تفلسف» .

- أي إعادة استحضار هذه الفترة وتقديمها إلى القارىء .

● تماماً . حتى عندما يقرؤها الإنسان يعرف أن الله لم يخلق لبنان وسورية وفلسطين . . . إلخ ، لأن الإنسان كان ، في بعض الأوقات ، يجتاز هذه المناطق كلها من دون المرور بنقاط الأمن العام والبوليس والشرطة ، أي في وقت لم يكن في الحياة «غلاظة إدارية» كالموجودة اليوم . والقصد هو تظهير هذا الجانب ، والإشارة إلى أننا كنا ، في حقبة ما ، «مبسوطين» .

- إن تاريخ عائلتك هو أكبر برهان على ما تروي . أصلكم من

عين حليا[1] ، وأتيتم إلى بحمدون . وأجدادك عاشوا بين الأردن ومصر والسودان وكانوا يتحركون بسهولة في وطن واحد ومنطقة واحدة .

● وراءك صورة والدي . وحين تخرَّج والدي طبيباً سافر إلى مصر وعين «سرطبيب» في الجيش المصري .

- ولك عم عاش في الخليل ، أو بين الخليل والسلط على ما أعلم .

● هذه صورة جدتي أم عبد الله . انظر ؛ لقد كانت حاسرة . هذه الصورة التقطت في ستينيات القرن التاسع عشر ، وها هي لا تضع على رأسها إلا المنديل على عادة أهل جبل لبنان .

- في أربعينيات القرن العشرين فصاعداً كان في العالم العربي أربعة اتجاهات فكرية وسياسية رئيسة : الاتجاه الشيوعي ، والاتجاه القومي العربي كالبعث والقوميين العرب ، والاتجاه السوري القومي ، والإسلام . كأنك لم تتأثر بأي اتجاه من هذه الاتجاهات . لماذا لم تنتم إلى أي حزب سياسي؟

● ربما لأن تديني العميق حال دون أن أهتم بهذه الأمور .

- هذا جواب مفاجىء .

---

(١) بلدة سورية تقع بين بلودان وسرغايا في قضاء الزبداني ، وهي تعني بالسريانية «عين الحلو» . وقد نشبت فيها عداوة بين آل أبو نار وآل ابو هلال ، واشتعل القتال بين العائلتين ، فنزح منها آل الحلو إلى عكار وشمال لبنان ، ونزح آل أبو نار إلى قطنا وقلعة جندل . ومن عائلاتها في لبنان : الحلو ، صالحاني ، حلياني ، زخم ، أبو ملهب ,كيروز ، ضاهر ، منيِّر ، ليان ، الحاج ، الحكيم ، أبو فاضل ، مخلوف وغيرها .

● الإنسان ينتمي عادة إلى مدرسة تفكيرية . في رأيي أن هذا غلط ، لأن انتماءه يحد من حريته . أنا طول عمري لم أرغب في أن يحد أحد من حريتي . كثيرون من أصدقائي انتموا إلى تيارات فكرية وسياسية مثل حركة القوميين العرب . وديع حداد كان صديقي . . . لم يكن صديقاً حميماً ، ولكنه كان صديقي بشكل جيد . ومنهم ما زال صديقاً حتى اليوم أمثال أحمد الخطيب وهاني الهندي . ورفاقي ، في أكثرهم ، كان لديهم ميل عروبي ، غير أني لم أنضوِ تحت راية أي جماعة . أذكر أنني ، في انتخابات جمعية العروة الوثقى[1] أو انتخابات مجلس الطلبة في الجامعة الأميركية ، كنت أقترع للقوميين العرب ، من غير الانتماء إليهم حزبياً أو عَقَدياً .

– هل حاولوا استدراجك إلى الانضمام إليهم؟

● أعتقد أنهم احترموا موقفي . وأنا احترمت موقفهم ، وما زلنا أصدقاء . وبطبيعة الحال لم أكن مقاطعاً للآخرين على الإطلاق . وحين ذكرت أن تديني الشخصي حال دون انخراطي في جماعات سياسية كنت أعني أن عملي كان يملأ علي حياتي إلى درجة لم أكن أشتاق معها إلى الخروج من وضعي إلاّ للمتعة . وبهذه الطريقة حافظت على علاقاتي بعدد كبير من أصدقائي ؛ لأن الإنسان عند انخراطه في

(١) جمعية علمية ثقافية أسست في نطاق الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩١٨ . والمؤسسون هم محيي الدين النصولي وأديب مظهر من لبنان ، ورشدي الجابي وإبراهيم الدادا من سورية . أصدرت الجمعية مجلة «العروة الوثقى» في سنة ١٩٢٣ ، واستمر عمل الجمعية حتى سنة ١٩٥٥ بعد أن تحولت ، بالتدريج ، نحو السياسة ، ولا سيما بعد نكبة فلسطين في سنة ١٩٤٨ .

حزب ما فما لا شك فيه أن ذلك سيؤثر في علاقته بالآخرين ممن لا ينتمون إلى حزبه .

– ربما يصبح تفكيره محدوداً أيضاً .

● ربما في أحد الأوقات اهتممت بالسياسة حين عُرض سؤال عن لبنان وعن مشروعية وجوده في أثناء الوحدة بين سورية ومصر . حينذاك اتخذت موقفاً متشدداً ضد الوحدة ، ووقفت إلى جانب استقلال لبنان ، ولكن من غير عداء لأصدقائي الوحدويين .

– لم تلتزم أي حزب سياسي ، لكن لماذا تبتعد عن الخوض في السياسة مع أن السياسة باتت تقرر مصائرنا كأفراد ومصائرنا كمجتمعات؟

● إذا كان حكامنا سيستمرون في تقرير مصائرنا على هذا النحو فالحياة ، في هذه الحال ، ليس لها معنى . نحن نعرف أن أي إنسان يجهد للقيام بعمله ، لأن ذلك يريحه معنوياً . وعندما لا يكون للإنسان القدرة على تغيير الوضع السياسي الذي يعيشه ، فلماذا يلقي هذا الهم على عاتقه ما دام لا يستطيع تغيير الواقع؟ غير أن الإنسان إذا كان لا يستطيع القيام بهذا الأمر ، فليقم بأمر آخر ؛ لا يستطيع العمل في السياسة ، إذاً ليعمل في الصحافة مثلاً ، أو في الفن أو في أي شأن آخر . فالسياسة ليست مفروضة على الإنسان حكماً . وتغيير الواقع يحتاج إلى عناصر كثيرة منها السياسة . والسياسة ، بحسب مكيافيللي ، فيها أمور سيئة جداً ، فهي تبرز أسوأ ما في غريزة الإنسان ، أي حب السيطرة .

– وغريزة الجشع والإيذاء ثم الكراهية .

● نعم . ولا يوجد شخص انخرط في العمل السياسي في بلادنا

إلاّ قيل فيه ما لم يقله مالك في الخمر . وأنت تعرف ما قاله مالك في الخمر .

– السياسة ملوّثة للأخلاق . لكنني قصدت من كلمة «سياسة» هنا في هذا الحوار ، إبداء الرأي في الشؤون السياسية ، لا الخوض في العمل السياسي ، أو ، على الأقل ، الخوض في السياسة كمفهوم ، أو كفكر .

● بهذا المعنى كل ما يقوم به الإنسان هو سياسة ، لأن ما يقوم به الإنسان يؤثر في الآخر فيغيره .

– حتى الفن هو تحريض على الأجمل ؛ فالفن الراقي يغير ، بقوة المقارنة ، الذائقة الفنية للناس بالتدريج ، الأمر الذي يغير تطلع الناس إلى الأجمل . وهذا ما يفعله الأدب والفكر . ولا أقصد في هذا الميدان السياسة بمعناها اليومي ولا سيما السياسة في بلادنا العربية ، وخصوصاً في لبنان . إنها مصيبة .

نحن والغرب

– كيف تقارن العرب بالغرب اليوم؟

● نحن ، خصوصاً في لبنان وفي العالم العربي ، نلوم أنفسنا كثيراً ، ونعتقد أننا أسوأ ما خلقته الحياة السياسية في الكون . نحن نظلم أنفسنا جداً ، لأننا عندما نقارن أنفسنا بالدول التي نتمثل بها عادة في ميدان التقدم والحريات والديمقراطية نجدهم زعراناً عشر مرات أكثر منا . وأكاذيبهم كبيرة جداً بينما أكاذيبنا صغيرة ومسكينة . هم أضروا شعوب العالم مئات المرات ، بل آلاف المرات أكثر مما أضرّ حكامنا بنا . إن ظلّهم على العالم ثقيل . من يخرب البيئة؟

– الدول الصناعية .

● والدول الصناعية هي الدول التي جعلناها المثال لنا .

– أي أميركا وفرنسا وإنكلترا .

● حتى دول اسكندنافيا ليست أحسن من أميركا وفرنسا وإنكلترا . عندما نقول دول اسكندينافيا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه المجتمعات هي منتهى الرقي . دعك من ذلك . زعران مثلهم مثل غيرهم من المجتمعات الغربية . أنا أشعر بأننا نحن العرب مساكين . مرة قال عنا السيناتور فولبرايت جملته المشهورة التالية: The Arabs are: Gazelles in a world of wolves .

- غزلان في عالم من الذئاب .

● نعم ، غزلان في عالم من الذئاب . صحيح أن في مجتمعاتهم غزلاناً «تكسر» أو تعتدي على غزلان ، لكنهم ، في العالم الذي يعيشون فيه ، كلهم ذئاب ، ولا واحد منهم يقول كلمة صحيحة . خذ ورطة لبنان حالياً ، ولا أريد الإغراق في التفصيلات السياسية . فقد وجد لبنان نفسه في عالم من الكذب المحض ؛ في عالم حيث الحقيقة لا تقال قط . لماذا إذاً نلوم أنفسنا بهذا القدر؟ وكلامي هذا لا يعني أن أمورنا على خير ما يرام . لا ، على الإطلاق ، لكنني سأقول فكرة ربما تبدو تافهة جداً وهي أننا لسنا وحدنا في العالم ممن يحتاج إلى تقدم وتغيير . غير أننا نحتاج إلى القليل من الأخلاق ، بينما العالم يحتاج إلى كثير منها .

- يحتاج إلى أطنان بالمقارنة .

● هذا ما اكتشفته من خلال معرفتي الغرب ، فأنا سافرت كثيراً ، وأسافر دائماً إليه .

- لم تحب الغرب؟

● على الإطلاق .

- «لا يأتي من الغرب ما يسر القلب» . هذا مثل من الجبل اللبناني .

● لا شيء أسوأ من الغرب . منذ زمن طويل اتخذت موقفاً من الحضارة الغربية . والحضارة لا يمكن أن تدوم إلى ما لا نهاية . وأي حضارة لا بد أن تنتهي بكارثة لنفسها وللعالم . وهذه الخلاصة توصلت إليها عندما كنت ما أزال أدرس (B.A.) في الجامعة ، حين كنا ندرس Political Science (العلوم السياسية) ، ونراقب ما يحدث في العالم .

وكنت أعد موضوعاً في International Relations (العلاقات الدولية) ، وهذه هي عصارة ما وجدته في تاريخ القوى السياسية التي لا يمكن أن يستمر هذا العالم على منوالها . ستنهار أخيراً بلا شك . وهذا العالم سيكسِّر نفسه .

- كما حصل في الحرب العالمية الأولى وفي الحرب العالمية الثانية .

● والثالثة . أنا لست معجباً بالغرب على الإطلاق مع أنني درست فيه ، لكنني درسته أيضاً . أحب الموسيقى الغربية ، وأقرأ الشعر الغربي . لكن الشعر الغربي الجيد كتبه شعراء رفضوا الوسخ الذي يعيش فيه مجتمعهم . لكن أن أقول ليتني عشت في الغرب ، وماذا أفعل في هذه البلاد . . . فهذا من المحال . على الأقل ها أنا أعيش في هذه البلاد مع أناس أفهمهم وأفهم عقليتهم ، وأفهم كذباتهم الصغيرة وألاعيبهم الصغيرة ، لا مع وحش كبير لا أعرف أين تبدأ وحشيته أو أين تنتهي ، ولا أعرف هل «سيخرمش» أم أنه سيعض . عموماً ، هو يعمل هذه الأمور كلها بعضها مع بعض .

- هذا الموقف توصلتَ إليه من خلال دراستك الغرب ، وليس من خلال إحساسك بأنك مختلف عنهم ، أو لأنك عربي بالدرجة الأولى .

● واجهت سجالات في قضايا عالمية مع أناس غربيين ، فوجدت أنهم لا يفكرون إلاّ بأنفسهم ، يا ليتهم يحبون أنفسهم . الحياة التي يعيشونها ليست حياة . فلا أحد فيهم يرتاح قليلاً ويدخن نَفَس نارجيلة مثلاً .

- إنهم في حالة جري دائم وراء العمل والثروة .

● تماماً . أنظر كيف يتسابقون اليوم على قمع التدخين . هناك أناس يدخنون ، وأناس لا يدخنون . حسناً ، قولوا للناس إن التدخين مضر . ولكن أن يصنعوا عالماً منظماً لقمع المدخنين ثم يتحدثون عن الحرية فهذا أمر عجيب . أنا لا أدخن ، ولكنني أتحدث عما ألاحظه . عندما كنت طالباً في لندن أحببت الإنكليز ، فهم كبقية الشعوب طيبون . والإنكليزي عندما يأمن لك يتحدث إليك بعفوية . ولكن عندما تبحث معه في قضية عامة ، تجده لا يستطيع أن يرى مكانتك أبداً بل يرى مصالحه وحده . وأذكر في سنة ١٩٥٦ إبان العدوان الثلاثي على مصر الذي شاركت فيه بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بعد تأميم قناة السويس ، وكانت بريطانيا خارجة للتو من الحرب العالمية الثانية ، أن شخصاً صديقاً لأخي ، وكان قاضياً في الجيش البريطاني ، يريد تعميد ابنته . وقد دعاني إلى حفل العمادة ، فذهبت لأرى كيف يعيش هؤلاء الإنكليز . إنه شخص ذو مستوى اجتماعي متطور ، ويقطن في حي راق جداً . وهناك التقيت مجموعة من الناس يرتدون ألبسة أنيقة ، وجميعهم تعلموا في مدارس متطورة ، ومع ذلك تجمعوا علي ليوجهوا إليّ ملامة شخصية بسبب تصرف مصر تجاه بريطانيا . وأنا آنذاك لم أكن على علم بالقضية من أساسها . وفي هذا السياق أذكر أنني كنت ما زلت تلميذاً عندما وقعت معركة العلمين في الحرب العالمية الثانية . غير أن هؤلاء الإنكليز لم يتوقفوا عن الكلام على أن المصريين بلا وفاء ، لأن بريطانيا قامت بعمل «جبار» وهو خوضهم معركة العلمين لتخليصهم من الألمان والإيطاليين والنازية والدكتاتورية ، فكيف يقولون لها الآن : أخرجي من مصر! فقلت لهم أنتم قمتم بهذا العمل خدمة لمصالحكم أولاً وأخيراً ، ودفاعاً عن حدودكم . أنتم دخلتم إلى مصر لا

لتحموا مصر ، بل لتهزموا ألمانيا وإيطاليا في شمال إفريقيا ، وكي تُفتح أمامكم طريق النصر في الحرب العالمية الثانية . ما هذا الكذب! أما أن تقولوا إنكم قمتم بذلك من أجلنا ، فهذا كذب صريح . وفي الأثر انقلب الكلام إلى شأن آخر ، فراحوا يقولون : عليكم أن تحاربوا بأنفسكم وتقاوموا الأخطار ، لا أن نحارب نحن عنكم . فقلت لمحدثي : عن أي خطر تتحدث؟ قال : الخطر الشيوعي . قلت له : إنني حتى الآن لم أشعر بالخطر الشيوعي . قال : بلى . هناك خطر شيوعي . فقلت : إذا كنتم تشعرون بهذا الخطر فنحن لا نشعر به أبداً ، ولكنني أشعر بخطر موجود بقربي هو إسرائيل . وتحول النقاش إلى ما يشبه الكلام الغاضب لولا وجود الدكتور نجيب سعد الذي كان أولاده مقيمين في المبنى نفسه ، وكان حاضراً ذلك اللقاء ، فراح يلطف الأجواء . لاحظ الغرابة في مواقف هؤلاء الإنكليز . يريدون أن أخدم فكرة أحلافهم السياسية ، وأدافع عنها في الوقت نفسه . وتبين لي أن الإنكليز كانوا يريدون إنشاء حلف في البلاد العربية ، بينما الأميركيون كانوا ضد هذا الاتجاه . وفي ما بعد «طيرهم» الأميركيون من المنطقة كلها . وهذه هي قصة الـ Anglo-American coldwar . مثال آخر : في تسعينيات القرن العشرين حضرت مؤتمراً في جامعة تكساس عن «الشرق الأوسط في خمسينيات القرن العشرين» ، وتحدثت فيه عن الشرق الأوسط في تلك الحقبة . وتناولت إحدى الأوراق المقدمة إلى المؤتمر الأوضاع بين القوى الكبرى في المنطقة في تلك الفترة . ومن جملة الحديث ، وكنت في تلك الأثناء أدرس تاريخ الأردن ، قلت : انتبهوا من الأميركيين . من المفروض أن يكون الأميركيون حلفاء البريطانيين . لكنهم يفضلون الروس خمسين ألف مرة . هم لا يريدون

الإنكليز في المنطقة . وكان هناك شخص حاضراً اللقاء ، وكان سابقاً سفيراً لأميركا في بيروت ، وكان تلميذي في الجامعة الأميركية (AUB) ، وكان يحترمني كثيراً ويسميني (My Goro) أي مرشدي . وكان حاضراً أيضاً شخص إنكليزي آخر يحترمني كثيراً . وكان هناك رئيس المؤتمر . وهؤلاء جميعهم «نزلوا بي» (أي انهالوا عليّ بالكلام) بشكل عجيب . فهذه الأمور ممنوع علي أن أبوح بها . هم يعرفون ذلك ، ولكن ممنوع عليّ أنا غير الإنكليزي أن أقول الحقيقة التي يعرفونها تماماً .

– **الحقيقة تؤلمهم .**

● أنا لم أقل شيئاً جديداً أو عجيباً ؛ فهو مسطور في الكتب ، وهذه الكتب تباع في مكتباتهم . ومع ذلك ممنوع عليّ أن أتفوه بمثل هذه المعلومات . وإذا أصررت على الكلام فالأمر يتطور إلى الوقاحة . لا تعتقد أنهم مهذبون ، وأن لقاءات اللطف وشرب الشاي مفعمة بالتهذيب دائماً . إنهم يتواقحون حقاً ، ولا يتورعون عن القول لك : أنت حمار . وقد قال لي ذلك السفير الأميركي : أنا كنت دائماً أعتبر كمال الصليبي (My Goro) ، ولكنني الآن ما عدت أعتبره كذلك .

– **إن مبدأ إيزنهاور كان يعني خروج الفرنسيين والإنكليز والبرتغاليين من الشرق الأوسط والهند .**

● صحيح . وإلا لماذا وقعت حرب فيتنام؟ الأميركيون هم من أخرج الفرنسيين من الهند الصينية . وفي هذا السياق أقول لك : من يعتقد أن هناك من هو أحسن منا في العالم مخطىء .

– **أنا أفهم أن يرفضوا ما يأتي من عربي على المستوى الصحافي والسياسي ، وخصوصاً إذا وجّه إليهم النقد . ولكن ، حتى في الحقل الأكاديمي الذي من المفترض أن يكون فيه مستوى عالٍ من**

العقلانية والحيادية ، فهم يتخذون الموقف نفسه .

● يقبلون العربي إذا عمل في الهامش (footnote) . ولكن لا يقبلونه أن يقوِّم الصورة العامة . يقبلون أن يعمل Still life (طبيعة صامتة) ، أي أنهم يقبلون العربي إذا قام برسم مزهرية ، ولكن لا يقبلونه إذا حاول تصوير مشهد طبيعي متكامل (paysage) . فإذا صور (paysage) الله يساعده . عندها سيصبح مثلي : «هِرّ بتسع أرواح» . أنا قمت بما أعتقده صحيحاً . وجدت حقيقة ، بحسب نظرتي ، فقلتها ، ووقفت في وجه العالم . ولا شك في أن بينهم بعض الأوادم مثل أنطوني ليّاس[1] . لكنهم في ما عدا القلة ، شنوا عليّ حرباً ضروساً .

– **ليتهم ردوا عليك بحجج علمية .**

● أبداً ، لم يردوا .

– **في هذا السياق ذكرتني بإدوارد سعيد وكتابه**

---

(١) أنطوني ليّاس Antony Lias لغوي إنكليزي وباحث في علم الفلك برهن أن نظرية كمال الصليبي في أصل التوراة صحيحة . واستند في برهانه إلى «أعجوبة أشعيا» التي صنعها أمام الملك حزقيال (سفر أشعيا ، الاصحاح ٣٨ ، الآية ٨) ، والتي وردت أيضاً في سفر الملوك الثاني (الاصحاح ٢٠ ، الآيات ٨-١٢) ، وهي أنه أعاد ظل الشمس إلى الوراء عشر درجات . وأكد أنطوني لياس أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تحدث في أورشليم الفلسطينية الواقعة على خط عرض ٣١ ، لكنها ظاهرة طبيعية في أورشليم عسير الواقعة ضمن مدار الاستواء . وقال لياس إن أشعيا استقى معارفه الفلكية من الآشوريين ، وتمكن من خداع الملك حزقيال ، وجعل ظاهرة طبيعية في أورشليم عسير تبدو كأنها معجزة .

«الاستشراق»[1] ، فقد هاجموه كثيراً ، لأنه ، كما يبدو ، تجاوز نطاقه الأكاديمي والمعرفي .

● لا أظن أنهم عادوه .

– لم يعادوه حقاً ، ولكن وجهوا إليه انتقادات ليست بسيطة .

● انتقاداتهم من ضمن نطاق الثقافة الغربية نفسها .

– هناك إعادة نظر اليوم في أهمية هذا الكتاب . وإذا كنا في منطقتنا العربية استقبلنا الكتاب بترحاب لافت ، إلا ان الأصوليات الجديدة استندت في مجادلاتها إلى نصوصه وأفكاره .

● هذا الأمر بات قديماً جداً . ظهر الكتاب سنة ١٩٧٨ . أما إعادة النظر فيه ، فليس أمراً مهماً اليوم . المستشرقون ماتوا .

– هل تريد أن تقول إن الكتاب ما عاد مهماً؟

● من المؤكد أن ثمة سبباً للاستشراق كمنهج . ومن المؤكد أن الحكومات الغربية اهتمت في ما مضى بالاستشراق لتوسيع معلوماتها عن البلدان التي تريد السيطرة عليها . فقد كانت الدولة العثمانية تمد سيطرتها على مناطق شاسعة من العالم . وكان الغرب يريد السيطرة على جميع البلدان ، بما في ذلك الهند وإفريقيا الغنية بالثروات . في إنكلترا أسست School of Oriental and African Studies (SOAS) . وحتى يسيطر الغرب على هذه البلاد كان يحتاج إلى أن يعرفها . لذلك رصدوا الأموال ودفعوها إلى باحثين لدراسة الشرقيات . والمستشرقون الذين صنعوا الاستشراق لم يبق منهم أحد . ومن بقي منهم أصبح

(١) ترجم كتاب «الاستشراق» الدكتور كمال أبو ديب ، وصدر في بيروت عن مؤسسة الأبحاث العربية في سنة ١٩٨١ .

مدرسة أكاديمية ، وزالت عنهم صبغة خدمة الاستعمار .

– في أي حال ، فإن الاستشراق ليس مدرسة واحدة .

● هناك مدارس كثيرة .

– هناك مدارس ذات طابع كنسي ، وأصحابها أتوا إلينا كرحالة أو حجاج ليشاهدوا هذه البلاد ، مهد المسيح وبلاد المسيح . وهناك استشراق علمي محض . ولولا بعض المستشرقين لظلّ جزء كبير من كنوزنا التراثية مطموراً تحت التراب .

● لم ينته العمل في كتاب «أنساب الأشراف» للبلاذري حتى اليوم[1] . ولولا الألمان لما بدأ أحد في تحقيقه . وعندما أراد المستشرقون الألمان تحقيقه جاؤوا إلى بيروت وافتتحوا معهد الدراسات الشرقية في زقاق البلاط ، وأحضروا إحسان عباس ومحمد يوسف نجم وغيرهما . وكان كل واحد من هؤلاء المحققين العرب يأخذ جزءاً من الكتاب فيحققه وينشره باسمه . واقتصر دور الألمان على طباعته . أي لم يكن هناك لجنة ألمانية تستطيع أن تزوّر ما فعله إحسان عباس مثلاً . وجل ما فعله المستشرقون الألمان أنهم كلفوا أبناء هذه البلاد تحقيق مخطوطاتنا ثم كرّموهم . أنا أعرف إحسان عباس جيداً[2] . لقد جعلوه عضواً في

(١) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى البغدادي البلاذري . والبلاذري لقب عَلق به لأنه شرب البلاذر فأفسد عقله . والبلاذر نوع من الصمغ . وللبلاذري علاوة على «أنساب الأشراف» كتاب «فتوح البلدان» المشهور .

(٢) ولد في عين غزال بفلسطين في ٢/١٢/١٩٢٠. هاجر بعض أفراد عائلته إلى العراق في سنة ١٩٢٠ مع انسحاب الجيش العراقي من تلك المنطقة . درس على ==

جمعية المستشرقين لديهم ، لأنه فعلاً كان محققاً كبيراً . ولو لم يفكروا هم في المشروع ويؤمنوا له التمويل لبقي «أنساب الأشراف» بين الغبار .

= = تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي ، وكان يصلي في جامع الاستقلال في حيفا حيث كان عز الدين القسام يتولى إمامة الصلاة والخطبة والتدريس . ومع ذلك مال إلى الأفكار اليسارية ولا سيما في ما يتعلق بقضايا العدل الاجتماعي والعدالة الإنسانية . يعد أحد أبرز نقاد الأدب في العالم العربي ، وأحد ألمع محققي المخطوطات وكتب التراث . توفي في عمان سنة ٢٠٠٣ .

رأس بيروت والحداثة

- أنت علماني . لماذا إذاً كنت في إحدى الفترات قريباً من أفكار القومية اللبنانية؟

● أولاً ، إن كلمة «القومية اللبنانية» لم تكن واردة عندي في أي وقت ، ولا عند سواي أيضاً . كانت هناك فئة قليلة جداً أرادت تقليد القوميين السوريين ، فصاروا يقولون بالقومية اللبنانية . الأمر لدي لا يعدو أن يكون مجرد شعور ، أو انتماء إلى لبنان ، وليس أكثر من ذلك إطلاقاً . وشعور الانتماء إلى لبنان يتضمن ، في الوقت نفسه ، خوفاً على لبنان . ففي أثناء الوحدة السورية ـ المصرية ارتفعت أصوات معادية للكيان اللبناني واستمراره ، وراحت بعض الأصوات اللبنانية ترتفع هاتفة «الوحدة عاجل عاجل»[1] . أنا لم أكن أريد الوحدة عاجل عاجل . وعلى الفور ، ومن غير أن أنتمي إلى أي حزب أو فريق ، فتحت على حسابي مقاومة بما ملكت يداي . كنت آنذاك في الجامعة . وجاءني شبان وشابات وقالوا لي : نحن نشعر أن الأمور ستخرج من أيدينا إذا لم نبادر إلى القيام بأمر ما . وقد تباحثنا في هذا

(١) أصل العبارة هو : «الشعب اللبناني الثائر بدو الوحدة باكر باكر» . وفي دمشق كان الهتاف على النحو التالي : «بدنا الوحدة باكر باكر مع ها الأسمر عبد الناصر» .

الشأن ، ولاحظنا أن هناك توافقاً في الآراء . فقلت لهم : نظموا أنفسكم وأنا وراءكم . إن الله منحني ، أحياناً ، بعض الجرأة . وعندما قالوا لي إنهم يريدون صوغ أيديولوجية لهذه المجموعة ، قلت لهم : لا أريد أيديولوجية ، فلكل واحد الحق في أن يفكر كما يريد . ونحن متفقون على أمر واحد هو تقديس انتمائنا إلى لبنان ، ولا نسمح لأحد بأن يعتدي عليه . نحن لسنا ضد أحد ، ومن يريد تمجيد الوحدة العربية فليمجدها . ولكن إذا كان ، في أثناء تمجيده هذا ، تكلم بكلام سيىء على لبنان المستقل السيد الحر ، عندها يجب أن نوقفه عند حدّه ، وهذا ما فعلناه . وبالفعل كنت جريئاً آنذاك ، فقد ضربت عرض الحائط بسمعتي العلمية ، ولم أهتم بما قيل عني . كنت أعمل أولاً ، ثم أفكر بسمعتي العلمية ثانياً . هذا إذا أردت محاسبتي على تلك المرحلة .

- كلا . إننا هنا نروي للتاريخ .

● هذا ما جرى وهذا ما فعلته وهذا ما كتبته . ومع ذلك فأنا لا أظن أن هناك جنساً لبنانياً خلق قبل ستة آلاف سنة . ولم أكن يوماً مقتنعاً بهذه الخرافة . غير أن بعضهم لا يتورع عن تصنيف من يقف مثل هذا الموقف تبعاً لثقافته المحدودة . فكانوا يقولون عني إنني من حزب الكتائب . ما السبب؟ لأن حزب الكتائب كان الحزب الوحيد آنذاك الذي كان يطالب بـ «لبنان أولاً» .

- فصُنِّفت معهم وأنت لست منهم .

● اليوم صار الجميع يقولون لبنان أولاً . والأمر نفسه حدث عندما جاءت منظمة التحرير الفلسطينية إلى لبنان . كان موقفي هو الموقف نفسه . من يستطيع ألا يكون إلى جانب منظمة التحرير الفلسطينية؟ كأنك ضد تعليم الصبيان والعميان . ليس من الممكن ألا تؤيد شعباً

خسر أرضه ويريد تحريرها . ولكن ، على هذا الشعب ألا يسعى ليُقيم دولة داخل الدولة . وإذا أراد أن يقيم دولة داخل الدولة ، فنحن من جهتنا سنجرب أن نمنعه . وقد جرّبنا جهدنا . لكن ، عندما حاول بعض اللبنانيين أن يتطاول على الفلسطينيين كفلسطينيين ، وأرادوا الاقتصاص منهم ، وانخرطوا في مؤامرة لها أول وليس لها آخر ، وكان للأميركيين يد ورجل فيها . . .

- خطة كيسنجر المشهورة[1] .

---

(١) ذكر آلان مينارغ في كتابة «أسرار الحرب اللبنانية» (بيروت : المكتبة الدولية ، ٢٠٠٤) أن وزارة الدفاع الأميركية عرضت على الحكومة اللبنانية في سنة ١٩٧٣ تقديم مساعدة عسكرية كبيرة للجيش اللبناني إذا كان الهدف إنهاء وجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان . ويذكر جوناثان راندل في كتابه «حرب الألف سنة حتى آخر مسيحي» (بيروت ، ١٩٨٤) أن الإدارة الأميركية ضغطت على الرئيس سليمان فرنجية للقضاء على الفلسطينيين ، فكانت المواجهة في ١٩٧٣/٥/٢ . وحين اكتشفت هذه الإدارة أن الجيش اللبناني لا يمكن الاعتماد عليه في هذه المهمة ، بدأت الإعداد لتكليف الميليشيات المسيحية اليمينية بهذا الدور . وكانت خطة هنري كيسنجر تهدف إلى «تغطيس» المقاومة الفلسطينية في الوحول اللبنانية ، ثم القضاء عليها . وفي هذا الميدان يقول ويلبر كرين إيفلاند في كتابه المثير «حبال من رمل» (بيروت : دار المروج ، ١٩٨٥) ما يلي : في الثلاثين من نيسان ١٩٧٥ أعلن الرئيس الأميركي جيرالد فورد انسحاب الولايات المتحدة من فيتنام . وبدافع من الرغبة في السيطرة على الأزمات الاقتصادية وعلى أزمة الطاقة التي خلفتها حرب ١٩٧٣ بدأ كيسنجر ينفذ سياسة جديدة آملاً أنها ستؤدي إلى تبخر الفلسطينيين . أما جوناثان راندل فيكشف أن الولايات المتحدة كانت غارقة في ==

● وحاول بعضهم ذبح الفلسطينيين، وقفت ضد هذه المؤامرة، ووقفت مع الفلسطينيين، فقالوا: كمال الصليبي صار فلسطينياً. لم أكن ضد الفلسطينيين كفلسطينيين منذ البداية، ولا تحولت، بالطريقة التي صوروني فيها، إلى فلسطيني. كنت أقول ما يمليه علي المنطق، أي منطق الأوضاع آنذاك ومنطقي أنا بالتحديد. والنتيجة كانت أنني أرحت ضميري، وأوضحت أن العرب ليسوا أعدائي، والفلسطينيون ليسوا أعدائي، وبقيت متصالحاً مع نفسي ومع العالم.

– صحيح، فقد مر لبنان بمحنة سنة ١٩٥٨، ومشكلة انقلاب الحزب السوري القومي الاجتماعي في نهاية سنة ١٩٦١ وحرب ١٩٦٧، والاعتداءات الإسرائيلية المتمادية على لبنان بما في ذلك ضرب مطار بيروت الدولي في سنة ١٩٦٨، ثم أحداث ٢٣ نيسان ١٩٦٩ واتفاقية القاهرة بعد الصدامات بين الجيش اللبناني والفدائيين. ولا ريب أن لبنان كان يمر بلحظات شديدة الخطر، وهناك خوف جدي على كيانه. ولهذا فأنا أقرأ موقفك في سياق ما كان يجري من أحداث سياسية. وهنا لدي سؤال استطرادي: بما أنك كنت خائفاً جداً على الكيان اللبناني ولا تريده أن يذوب في أي كيان آخر، كيف توفّق بين هذا الموقف وميلك إلى التيار القومي العربي الذي ينادي بالوحدة العربية؟

== «فضيحة ووترغيت» وفضيحة الخروج من فيتنام والإخفاق المذل في أنغولا، وكانت تركيا اجتاحت قبرص، ولم تستطع أميركا أن تفعل شيئاً. وفي هذه الأجواء أرادت أميركا أن تفعل شيئاً يعيد الهيبة إليها في الشرق الأوسط ويمكنها من القضاء على م. ت. ف. فكانت الحرب الأهلية في سنة ١٩٧٥.

● أنا أحب عائلتي، وأحب والدي وأولاده (إخوتي) وأولاد أولادهم، وأشعر بوحدة حال معهم. وأحب أصحابي وعائلات أصحابي وأولادهم. وأحب تلاميذي وزملائي الذين عملت معهم. لكن، إذا جاؤوا وقالوا لي نريد أن نتشارك معك، عندها يصبح الأمر مختلفاً. فإذا كان المواطن متمسكاً بلبنان وبالكيان اللبناني فليس في الموضوع أي غلط. لا لأن لبنان بلد مثالي في الحريات، بل لأن هذا المواطن معتاد عليه وخلق فيه. والوقوف مع لبنان لا يعني معاداة أحد. أنا لا أقول: «العرب كش بره». وهذا واضح في مذكراتي. كنا عندما نذهب إلى الشام لا نعبر حدوداً. وعندما كان السوريون يأتون إلينا لم يكن في طريقهم أي حدود.

– أصل عائلتك من عين حليا في سورية. أليس كذلك؟

● لدي أقارب حتى اليوم في حمص من آل الصليبي، وأصلهم مثلنا من عين حليا. فأنا فعلاً أحب البلدان العربية كما أحب بلدي. وأتمنى لها الخير كما أتمنى لبلدي. وإذا أصابها أي مكروه أشعر به في جوارحي.

– بهذا المعنى فإن فكرة العروبة لديك هي فكرة ذات محتوى حضاري وثقافي. وليست تذويباً أو وحدة اندماجية.

● إنها انتماء إلى ثقافة وإلى تاريخ ولغة وشعب وجغرافيا.

– حبذا لو تعود الأمور كما كانت قبل ٤٠ سنة. أي أن نتمكن من الذهاب إلى الشام من دون أن تعترضنا الحدود. وأنا أذكر عندما كنا نذهب بالباصات إلى الشام، لم يكن هناك حدود على الإطلاق. كان الدركي يصعد إلى الباص، ويطلب من الركاب أن يحملوا هوياتهم بأيديهم. فينظر إليها من بعيد، ثم يعطي إشارة

السير للسائق إذا كان الجميع لبنانيين أو سوريين . فلا أوراق تختم أو حدود تعترض . وكم وقعت حالات استعارت فيها إحدى النساء هوية جارتها للذهاب إلى الشام في ما لو لم تكن تملك هوية .

● لم أستسغ السياسة كما تمارس اليوم في لبنان أو غير لبنان . لكن ، لم أشعر مرة بأنني مختلف عن العرب في أي بلد عربي .

- خاصة أنك عشت في الأردن وأحببت هذا البلد كثيراً .

● صحيح .

- الآن ، هل غيّرت الحرب الأهلية اللبنانية . . .

● أنا أول من أطلق على هذه الحرب مصطلح «الحرب الأهلية» .

- وأنا أستعير منك هذا المصطلح . إذاً هل غيّرت الحرب الأهلية اللبنانية بعض آرائك؟ ماذا أثرت فيك؟ وإذا كان لديك بعض الآراء قد تغير فما هو؟

● أعتقد أن الحرب الأهلية ، كما تبين من نتائجها ، كانت ضرورية . ليس خطأ أن يختلف الناس ، وليس خطأ أن نتبادل الخلافات . إن أعظم دول العالم التي نتمثل بها أحياناً ، لم تكن لتوجد في الواقع لو لم تقع فيها حروب أهلية مثل فرنسا أو بلغاريا أو إنكلترا ، وحتى الولايات المتحدة وإسبانيا . في إسبانيا بعضهم هرس بعضاً آخر . وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح . ثمة أسف على من مات ، وألم كبير على فقدان الأحبة . غير أن الظروف التاريخية جعلت المواقف تتصادم وتؤدي إلى الحرب . والحرب اللبنانية كانت حرباً أهلية حقيقية . صحيح أن أطرافاً كثيرة كانت تتدخل فيها ، لكن كل فريق ، كان منذ الأساس ، مقتنعاً بموقفه ، ولديه موّال يريد أن يغنيه . وراح الجميع يغني مواويله ، إلى أن صار من غير الممكن احتمال هذا الموّال .

وفجأة ، بدأ العالم كله ينظر إلى اللبنانيين كأناس يمكن استغفالهم . ونظر اللبنانيون إلى أحوالهم فوجدوا أن العالم كله يضحك منهم ، فقالوا : لنرمِ السلاح .

- دعني أستطرد قليلاً بالقول إن ثورات القرن التاسع عشر في أوروبا غيّرت الواقع الاجتماعي ، ووحّدت مقاطعات وخلقت دولاً جديدة . لكن الحروب الأهلية في بلادنا ، أو ما يسمّونه «العالم الثالث» ، قد تعيد المجتمع كثيراً إلى الوراء ، وليس بالضرورة أن تتمخض عن نتائج إيجابية .

● أنا من الناس المتفائلين . وأحاول دائماً أن أفتش عن مدخل للتفاؤل أو مخرج من المشكلات . وحياتي عشتها كلها مع الطلاب ، وعلّمت في الجامعة الأميركية في بيروت من سنة ١٩٥٣ حتى الثمانينيات من القرن المنصرم . واكتشف أن الأجيال التي درّستها بعد الحرب الأهلية أحسن بكثير من الأجيال السابقة . صار هناك ما أريد تسميته بأنه الشيء الذي لم يكن موجوداً Better Quality Human Being . ذهبت إلى الأردن وأقمت فيه ردحاً من الزمن ثم عدت . وبما أن طلابي الذين علّمتهم في الجامعة الأميركية أصبحوا اليوم أساتذة ، فقد كان من الطبيعي أن يحدث مجدداً احتكاكي بالطلاب الحاليين . I think that they are far Superier Quality . إنهم يحتاجون إلى القليل من الصقل وقليل من التعليم . لكن القماشة ممتازة . وأسأل نفسي : لماذا؟ لأن هؤلاء هم أبناء الحرب الأهلية . وإذا لم يكونوا هم أبناء الحرب الأهلية فإن أهلهم هم أولاد الحرب الأهلية . صارت دروس الحرب الأهلية جزءاً من «الانزايم» الخاص بهم (عصارتهم الخاصة) . والقدرات المتوافرة لشبيبة لبنان الآن لم يكن لها مثيل سابقاً .

– هذا الأمر أحد إنجازات التقدم العلمي في الأساس .

● ليس التقدم العلمي وحده . لاحظ حب الحياة لدى الشبيبة اللبنانية . لم يكن الشبان اللبنانيون على هذا القدر من الاندفاع إلى الحياة .

– أليس ذلك ردة فعل على غريزة الموت التي مروا بها في معمعان الحرب؟

● لا أدري . الأرجح أن هذا الجيل بما لديه من معطيات ، وحتى لو كان فيه بعض العقول المغسولة ، لديه ، في الوقت نفسه ، كفاية من العقول غير المغسولة ، وهو يخرج على العالم ليخلق مجتمعاً أفضل . مثلاً القضايا التي تثار على face Book مثل حقوق المرأة وحق توريث جنسيتها لأبنائها . . . إلخ . سيبقى هناك أفراد يظنون أن الجنسية اللبنانية مقصورة على أناس يجب التأكد من أن دمهم لا يحتوي على شوائب معينة . . . هذا مضحك . وأنا مسرور جداً لمعرفتي أنني لا يمكن أن أكون لبنانياً من هذا النوع ، فشهادة ميلادي تقول إنني مصري . أنظر إلى صورة جدّي وراءك . لو كان حياً الآن لكانت جنسيته أردنية . لكنه كان آنذاك عثمانياً .

– الشعب اللبناني خليط من أجناس متعددة : أرمن وتركمان وشركس وأكراد . . . إلخ .

● وهذا أمر حسن .

– أنت من أهل الجبل ، لكنك عشت في المدينة الساحلية بيروت . والمعروف أن ثمة عداوة تقليدية بين الجبل والساحل . ربما كان منشأ هذه العداوة المنافسة . ومهما يكن الأمر فإن تقاليد الجبل غير تقاليد الساحل . فالجبل بيئة زراعية ، وتقاليد الزراعة تختلف

عن تقاليد التجارة في الساحل . والسلوك الجبلي يتميز بنوع من القساوة أو الجلافة . بينما الساحل التجاري أكثر مرونة لأن هذا ما تقتضيه التجارة . هل لاحظت فارقاً بين سلوك أهل جبل لبنان وسلوك أبناء المدن الساحلية وسلوك أبناء بيروت تحديداً؟

● لم أجد فارقاً واضحاً ، لأن الانتقال كان ليناً . وأذكر أنني أول ما نزلت إلى بيروت كان انطباعي أنني أنتقل من وضع إلى وضع «أحلى» بكثير . فمن مصادفات أيامي أنني جئت إلى رأس بيروت . خصوصاً أن من الصعب أن تجد مكاناً في العالم كله مثل رأس بيروت . يمكن أن تكون أكسفورد مثل رأس بيروت ، ولكن تبقى بيروت «شكل ثاني» . منذ زمن بعيد كانت Harvard Square شبيهة بها . ومع الوقت بدأت أكتشف محاسن بيروت ، وصرت ، بالتدريج ، أكتشف أن القيم التي كنت أعتز بها في الجبل هي قيم متوحشة .

– سؤالي هو التالي : إن السلوك الاجتماعي في لبنان يبدو كأنه سلوك مجتمع زراعي جبلي وثقافة مجتمع حديث . أي أن هناك نظامين للقيم : قيم الجرد والعصبيات المحلية ، أي قيم المرجلة والبهورة ، ثم قيم الساحل التجاري الذي يخضع ويؤدي الضريبة .[1] والساحل التجاري يكون في الوقت نفسه منفتحاً ومساوماً ومسالماً لأنه يريد أن يحمي مصالحه التجارية . وفي مقابل قيم الجبل ، أي جبل الموارنة والدروز ، أقامت البرجوازيتان

---

(١) يجسد «المخمّس المردود» ، وهو نوع من الزجل اللبناني ، شكلاً من أشكال «البهورة» . ومثال ذلك هذان البيتان من المخمّس المردود : بْهد بقد بمد بْشد برد الدهر خليفاني/ بعد بكد بحد بجد بْرجّع كانون الثاني .

المدينيتان ، السنة والأرثوذكس ، نظام المحسوبية ، أي أن كل شيء محسوب على الآخر ، وحتى اليوم ما زلنا نقول : «محسوبك» . إذا صح هذا الوصف ، فإن لبنان هو دمج لقيم المحسوبية بقيم الجرد في نسق واحد . وكل واحد اليوم محسوب على زعيم أو على طائفة أو على جماعة . هل هذا الأمر انعكس على تكوين لبنان الاجتماعي؟

● الدمج ليس غلطاً . لكن يمكن النظر إلى الأمور بطريقة مختلفة ، ومنها طريقتك هذه التي عرضتها في سؤالك .

– كيف تقارن بيروت التي عرفتها في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات ببيروت اليوم؟

● أستطيع التحدث عن رأس بيروت . الغريب أن المدينة لم تتغير . والعناصر التي دخلت إلى رأس بيروت ليست هي من خرّب رأس بيروت . ربما خرّبتها قليلاً ، لكن ، في المقابل ، أثّرت منطقة رأس بيروت في روحية مدينة بيروت كلها . الخير دائماً أقوى من عدمه ، والمحبة أقوى من البغض . البغض يمكن أن يظهر نفسه في صورة أنياب مثلاً . لكن ، في النهاية ، فإن الوعاء الكبير ، الذي هو وعاء المحبة ، يقتله . المهم أن تصل إلى المرحلة الأخيرة .

– هنا المشكلة . المهم ألا يطول أمد البغض ، فيقتل أي شيء .

● في أي حال ، أنا أرى أن منطقة رأس بيروت لم تتغير كثيراً . ربما تغيرت بيروت كلها . لكن رأس بيروت بقي على حاله . ترددت قليلاً على Down Town . والحقيقة أنني أحببت وسط المدينة . أحببت روح المنطقة . وأكثر ما أحببت الوجه اللبناني المبتسم الذي يحب الحياة . وأنا متأكد أن هذا الوسط مختلط بأشياء بشعة جداً . لكن الدنيا كلها هكذا . بينما هنا لدينا وجه لبنان المبتسم والذي لا أبدله بأي شيء في الدنيا .

أنا أتمنى أن يصبح كل لبناني على صورة هذا الوجه ، فبدلاً من الجلوس والتفكير بالسياسيين وهم يخططون للسرقة والنهب ، فليفكر الإنسان بالأمور الجيدة والجديدة . ولا توجد فئة لبنانية خالية من هذه القدرات . فاللبناني خلاّق جداً . إنه ليس خلاّقاً بالضرورة في ميادين الفن والشعر ، وربما يكون لديه أسوأ شاعر أو أسوأ فنان أو أسوأ معماري ، ولكن لديه القدرة على العيش في أسوأ الظروف ، والقدرة على تخطي البغض .

– رأس بيروت منطقة كانت مميزة جداً منذ بداياتها العمرانية ، مع أنها منطقة حديثة نشأت مع نشوء الجامعة الأميركية . ولأنها ذات طابع متعدد وعلماني صارت مقصداً للبرجوازية الفلسطينية في سنة ١٩٤٨ وللبرجوازية السورية منذ سنة ١٩٥٧ فصاعداً . فالبرجوازي السوري القادم إلى لبنان لن يذهب إلى الضاحية الجنوبية على الإطلاق بل إلى رأس بيروت ، وبالتحديد إلى الحمراء التي كانت تعرف باسم «جرن الدب» سابقاً . والمعروف أن المدينة تمدن الوافد إليها من الأرياف ، فتدمجه في إطارها ويتعلم في جامعاتها ويكتب في صحفها . . . إلخ . أما اليوم فيبدو لي أن مدينة بيروت بدأت تفقد هذه الوظيفة ، ولا سيما بعد ظهور ما يسمى اقتصاد الضواحي . فنتيجة للحرب الأهلية وما رافقها من تهجير وتطهير طائفي ، نشأت الضواحي الجديدة ، وصارت كل ضاحية منطقة قائمة بذاتها . خذ منطقة جونية ومحيطها ، فلديها جامعة وأماكن سكن مترامية ودور سينما ونواد . . . إلخ . ويستطيع الساكن في ذوق مكايل ألا يأتي إلى بيروت إلا عند الضرورة . والساكن اليوم في الضاحية الجنوبية لديه جامعة ومطاعم ونواد ومدارس وثانويات . وقبل تسعينيات القرن العشرين لم تكن هذه

الضواحي موجودة على صورتها الراهنة على الإطلاق . الآن كل ضاحية باتت مستقلة بذاتها . وساكن الضواحي حين يذهب إلى الحمراء كأنه يأتي للزيارة أو للمتعة أو للتسلية . وهذا ما يفقد المدينة طابعها المركزي ، فالمدينة تشد الأطراف والضواحي إلى قلبها بقوة المصالح ، فيما بيروت فقدت قلبها ، وما عادت قادرة على جذب الأطراف إليها . هل تعتقد أن هذا الوصف سليم؟

● سليم .

– كأننا نتحسّر على الأيام الماضية .

● يجوز أن يكون هذا الوصف سليماً . لكنني لا أحب أن يكون موقع بيروت هكذا . ومع ذلك ربما يكون كلامك سليماً في ما لو استخدمت طريقتك في التفكير .

– هذا أثر الحرب ، وهذا ما فعلته الحرب الأهلية بمدينة بيروت .

● كان هذا موجوداً قبل الحرب الأهلية أيضاً .

– ما قبل الحرب الأهلية؟

● نعم ، قبل الحرب . إن لبنان بلد صغير جداً ، انتقال عائلة واحدة من مكان إلى آخر يلفت الانتباه . ولأنه صغير جداً فإن الكلام ينتقل بسرعة كالقدح والذم والنميمة والفتنة بين الأصحاب . إن صغر لبنان يسبب ذلك ، كما أن صغره ينتج هذه الشخصية الخلاقة . لكن أين تجد بلداً يتقن الناس فيه الأعمال التي تعتمد عليها الحياة اليومية بسرعة عجيبة؟

– أليس غريباً أن هذه الحيوية في التلبية السريعة في لبنان وما زال لبنان بلا كهرباء منتظمة ، وبلا إشارات سير منتظمة؟

● الله لا يبلي إلاّ ليُعين .

تأسيس لبنان وتزوير التاريخ

– في أثناء الحرب الأهلية ظهرت في جامعة الكسليك فكرة تداولها كثيرون ، كإدوار حنين وفؤاد افرام البستاني وغيرهما . تقول الفكرة إن مشكلة لبنان في ترابه . هكذا وردت في مذكرات الأب بولس نعمان[1] . أي أن لبنان كلما كبرت مساحته زادت مشكلاته . فإذا صغّرناه تتضاءل هذه المشكلات . حينذاك كانت فكرة العودة إلى المتصرفية ذات بريق سياسي ، وحاول بعضهم الترويج لفكرة لبنان الصغير ، أي لبنان المتصرفية مع بيروت ، ورأوا في ضم الأقضية الأربعة[2] إلى جبل لبنان أمراً سيئاً لأنه ضاعف عدد المسلمين ، ولذلك تفاقمت المشكلات . والحل ، بحسب هؤلاء ، هو تصغير لبنان .

● حتى لو أن لبنان بقي في نطاق المتصرفية ، هل تظن أن المتصرفية ما كنت ستُخترق؟

---

(١) راجع كتاب «الإنسان الوطن الحرية» ، بيروت : منشورات سائر المشرق ، ٢٠٠٩ ، وهو الجزء الأول من مذكرات الأباتي بولس نعمان .

(٢) الأقضية الأربعة هي المناطق السورية التي ضمها الاحتلال الفرنسي إلى متصرفية جبل لبنان وهي : طرابلس والبقاع والجنوب ومرجعيون .

– طبعاً، ستُخترق.

● الحياة أمر متحرك، والناس تتوالد باستمرار. وإذا توالدت ولم تهاجر تختل التوازنات الديمغرافية. وهذا هو الأمر المنتظر حدوثه اليوم أكثر من الأمس. أنا ولدت في سنة ١٩٢٩. والناس الذين عرفتهم في يفاعتي هم ممن عاشوا في زمن المتصرفية. كانوا جميعاً يتحدثون عن المتصرفية، كأنهم يتحدثون عن أمهاتهم. ولا شك في أن للمتصرفية ميزاتها العظيمة. ولكن عندما كانت المتصرفية قائمة في لبنان كان اللبنانيون «فالقين دينهم» للمتصرفين و«فالقين دين» الدولة العثمانية. اللبنانيون لا يطاقون. لا يوجد متصرف غادر لبنان إلاّ فيه لوثة. الإنسان السياسي اللبناني لا يُطاق، لأنه يخلق من الحبة قبّة. إن أول متصرف على لبنان، أي داود باشا، هلكه يوسف كرم[1]، و«طلّع دينو». وفي ما بعد رحل عن لبنان وتابع صعوده في الإدارة العثمانية. وهنا، في لبنان المتصرفية، أشاعوا أنه سرق الأموال وغير ذلك من التشنيعات. والحقيقة أنه شخص أحب البلاد وفكّر في أن يصنع منها «سويسرا الشرق». لكن اللبنانيين كانوا يفكرون بطريقة مغايرة. لماذا

(١) ولد في إهدن في أيار ١٨٢٢. عين في عهد الدولة العثمانية ملتزماً جباية الضرائب في مقاطعة إهدن. عُرف بعلاقاته الوثيقة مع الإنكليز والأتراك الأمر الذي أثار عليه حفيظة فرنسا وأتباعها من الموارنة. اختلف مع طانيوس شاهين الذي لم يتورع عن إطلاق النار على موكبه في عينطورة وعشقوت، فما كان منه إلا أن توجه مع بعض رجاله إلى ريفون لاعتقال طانيوس شاهين، ففر الأخير إلى أعالي الجبال. عارض نظام المتصرفية فنفي إلى الجزائر. توفي في مدينة رازينا الإيطالية في ١٨٨٩/٤/٧.

الحاكم ليس من الموارنة؟ وهذه طبعاً دعوى جاهلية كما كان يسمّيها النبي. أليس كذلك؟

– تعصّب.

● عندما تقول ذلك تنتفخ العروق وتُسحب السيوف.

– هذا ما كان عند الموارنة. هل الموقف نفسه اتخذه الدروز من المتصرفين؟

● لا. الدروز كانوا، على ما أعتقد، مسرورين.

– لكنهم خسروا موقعهم التقليدي. فالمتصرفية أزاحتهم عن الإمارة وجعلتهم في الموقع الثاني.

● صحيح أنها جعلتهم في الموقع الثاني، لكنهم ارتاحوا، ربما، مما هو مطلوب منهم. خاضوا والموارنة حرباً وربح الدروز المعركة، لكنهم لم يستطيعوا ترجمة الربح العسكري إلى مكاسب سياسية. وشاءت الأحوال ألا تترجم انتصاراتهم على الأرض إلى مكاسب سياسية. فجاءت المتصرفية لتنقذهم وتفسح في المجال لكبار الشأن بينهم كي يتسلموا وظائف في المتصرفية؛ وظائف عسكرية بمعنى جاندرمة (درك)، ووظائف مدنية. لكن الوظائف المدنية كانت أقل من حصة المسيحيين مع أنها كبيرة، وأصبح الدروز في لبنان مرتاحين نسبياً بعد معارك ١٨٦٠. أما الموارنة فلم يكونوا مرتاحين، وكانوا يريدون ميناء مستقلاً في جونية. «حرقوا دين» السلطان وهم يرسلون إليه الرسائل في هذا الشأن، وامتلكوا ثقل دم لا يتصوره عقل سياسي. عندما تفكر برقد العنزة في لبنان، وكيف يسيطر عليه سكان يتميزون بثقل الدم هذا، تتعجب.

– تؤكد في مذكراتك «طائر على سنديانة» أن المسيحيين في

لبنان زوّروا تاريخ لبنان[1] . ما هي الوقائع التي خضعت للتزوير؟

● أمور كثيرة خضعت للتزوير ، بدءاً من الأمور البسيطة ، خصوصاً تواريخ العائلات والطوائف ، حتى صورة لبنان العامة . لبنان هو كيان ظهر سنة ١٩٢٠ . قبل ١٩٢٠ لم يكن هناك ما يسمى لبنان أو مصطلح لبنان ، كما لم يكن هناك ما يسمى فلسطين أو فلسطيني ، ولم يكن هناك ما يسمى عراق أو الأردن وشرق الأردن . هذه المصطلحات كلها جاءت بعد . . .

– سايكس - بيكو[2] .

(١) كان أرنست رينان يقول : إن صناعة وطن تقوم على تزوير تاريخه الخاص . وأرنست رينان مولود في سنة ١٨٢٣ هو كاتب وعالم أثري فرنسي ، وكان من أوائل المهتمين بالتنقيب في فلسطين ولبنان . من مؤلفاته «حياة يسوع» . توفي في سنة ١٨٩٢ .

(٢) اتفاقية سايكس – بيكو هي الحل الاستعماري لـ «المسألة الشرقية» Orient Question التي بدأت فكرتها مع حصار العثمانيين فيينا في سنة ١٦٨٣ . وفي سياق الصراع الأوروبي – العثماني جاءت حملة بونابرت على مصر وفلسطين ، ثم تطور التخطيط إلى ضرورة تحطيم الامبراطورية العثمانية واقتسام الأقطار الواقعة تحت سيطرتها . بدأ التفاوض على هذه الاتفاقية في ١٩١٥/١١/٩ ، ووقعت سراً بين مارك سايكس (انكلترا) وجورج بيكو (فرنسا) في ١٩١٦/٥/١٦ . وقد اعتبرت هذه الاتفاقية سوريا أسلاباً يجب تقسيمها بين الحلفاء المنتصرين . عُرضت الاتفاقية على روسيا فوافق عليها وزير الخارجية زازونوف لقاء ضم أرضروم وأرمينيا والدردنيل وفان وترابزون وتبليسي إلى بلاده ، ولم يعترض على هجرة اليهود إلى فلسطين . لكن ثورة أكتوبر في روسيا كشفت النقاب عن هذه الاتفاقية في تشرين الثاني ١٩١٧ . وكان من نتائجها قيام دولة ذات طابع مسيحي في لبنان (١٩٢٠) ، ==

● لا ، ليس بعد سايكس - بيكو . لأن قصة سايكس - بيكو هي من جملة التزوير .

– هذا أمر مفاجىء .

● أو من الأخطاء الشائعة . الفريق الذي أراد إنشاء لبنان بدأ يخطط لذلك منذ سنة ١٨٨٠ تقريباً . ودراسة هذه الخطة لم تكتمل بعد . هناك بعض الكتابات في هذا الشأن ، لكنها كتابات غير منشورة . فكرة لبنان بدأت في رأس مجموعة من المسيحيين الكاثوليك ، بمن فيهم الموارنة ، في لبنان وسورية . ومن غرائب الأمور أن آباء لبنان ولدوا في الشام وعاشوا في الشام . لكن كان هناك ما يجمعهم ، أي مسيحيتهم ، وأنهم من الأثرياء الذين يطلق عليهم مصطلح «برجوازية» . هؤلاء أقاموا مشاريع تجارية ، وخططوا لإقامة بلد اسمه لبنان بالحدود المعروفة ، وهي حدود أخذوها من خريطة رسمها الفرنسيون سنة ١٨٦١ . الخريطة كانت خريطة الطوائف ، لكن هؤلاء الشوام قالوا آنذاك إن حدود ما أصبح لبنان الصغير في ما بعد يمكن أن تتعايش فيه الطوائف الموجودة في إطاره . وتطورت الأمور في سنة ١٩٠٠ حتى صاروا يسمون هذا المكان Grand Liban أي لبنان الكبير ، وراحوا يجربون صوغ تاريخ متماسك لهذا البلد المرسوم حديثاً ؛ تاريخ يعود ستة آلاف سنة إلى الوراء ، بل إلى بدايات التاريخ . من هنا جاءت قصة الفينيقية ، مع أن لا شيء يربط لبنان اليوم بالفينيقيين . ولا توجد مؤسسة واحدة ظهرت في زمن الفينيقيين وما زالت مستمرة

== ودولة يهودية في فلسطين (١٩٤٨) وتقسيم ما بقي من سوريا على اساس مذهبي ، فضلاً عن سنجقي الاسكندرون والجزيرة .

حتى اليوم ، لا لغة ولا أدباً ولا أي شيء آخر . ولكن مفبركي لبنان ألصقوا لبنان بفينيقيا غصباً عن الطبيعة . وجاء بعض علماء الآثار الفرنسيين ممن استهوتهم هذه الفكرة وانخرطوا في الترويج لها من دون أن يصدقوها . وأنا أعرفهم ، ولي مع بعضهم صداقات . كانوا يستهزئون باللبنانيين الذين يصدقون هذه الأفكار . ومع أنني تربيت في الجامعة الأميركية ، ثم في إنكلترا ، فقد كانوا يفضلونني على من يوافقونهم الرأي ، لأنني لا أخدع نفسي ، ولا أسمح لأحد أن يخدعني . أحد هؤلاء كان مستشرقاً اسمه غاستون فييت عمل في أول فريق آثار فرنسي في لبنان ، قال لي : جئنا إلى هنا وليس لدينا أي تعليمات للقيام بأي جهد . قالوا لنا اعملوا أي شيء مهما كان .إن الكلام على تاريخ عمره ستة آلاف سنة للبنان مجرد تزوير لا تزوير بعده . الخطير في الأمر أن هذا التزوير تحول في عقول بعض الناس إلى فكر راسخ . وحين نصحح لهم الأمر ونقول لهم إن هذا تزوير مكشوف ، يرشقوننا بتهم مثل : مارق أو خائن . . . إلخ . الغريب في الأمر أن الناس الذين رفضوا الفكرة اللبنانية اعتقدوا أنني أبشر بالفينيقية .

- كتبك لا تتضمن ذلك البتة .

● ليست كتبي وحدها . بل إنني ، منذ بدأت الكتابة ، وللعلم فقد بدأت أكتب بالفرنسية لأننا كنا نتعلم الفرنسية في زمن الانتداب الفرنسي ، كتبت مقالات في صحيفة L'Orient أوردت فيها أن تاريخ لبنان هو تاريخ توافقي وليس تاريخاً حقيقياً . وإذا كانوا يريدون أن يكتبوا تاريخاً للبنان فيجب أن يكون تاريخاً حقيقياً [1] .

(١) كتب كمال الصليبي مقالتين في L'orient بيّن فيهما انعدام التواصل التاريخي المزعوم بين لبنان الحديث وفينيقيا القديمة .

- كتبت في L'Orient ، ألم يكن جورج نقاش رئيساً لتحريرها؟

● نعم ، جورج نقاش .

- كان فينيقياً ومعادياً للعرب .

● كان فينيقياً نعم ، لكنه كان يمتلك عقلاً منفتحاً [1] . لنأخذ تاريخ العائلات الحاكمة في لبنان . إن أول تزوير هو أنهم قالوا عن أنفسهم إنهم عائلات حاكمة مثل «البوربون» في فرنسا أو سكان جبال البيرينيه التي تفصل فرنسا عن إسبانيا . وعلى سبيل المثال آل شهاب وآل معن وآل بحتر ، هولاء ادعوا انهم أمراء . يجب أن يتوقف المرء قليلاً ليفحص ماذا تعني كلمة «أمير» . إن كلمة «أمير» تعني قائد ، أو ضابط . كان هناك عسكر وآمر على العسكر . هناك أمير عشرة ، وهو أدنى رتبة . وأمير أربعين ، وأمير مئة . أي أن أمير العشرة لديه عشرة خيالة تحت إمرته ، وأمير المئة يكون تحت إمرته مئة فارس ومعهم ألف عسكري مشاة ، وهذا يسمونه أمير مئة . أي أن لقب أمير هو لقب عسكري بحت . وكان العثمانيون ، بدلاً من أن يدفعوا إلى هؤلاء القادة رواتب ، يمنحونهم ما يسمى «إقطاعاً» ، أي يقطعونهم منطقة ليجبوا منها الضرائب .

- أي أنهم مجرد ملتزمي ضرائب (تيمار وزعامت) .

● سأقول لك تماماً كيف كانت الأمور تجري . يصدر فرمان يتضمن

(١) ولد في سنة ١٩٠٤ . درس في الإسكندرية ، وتخرج مهندساً في إحدى الجامعات اللبنانية . أسس جريدة «الأوريان» بالفرنسية في بيروت في سنة ١٩٢٤ ، ثم جريدة «الجريدة» سنة ١٩٥٣ . وقد كان له باع في تأسيس «النادي الفينيقي» في بيروت ، وأقام علاقات وثيقة مع الوكالة اليهودية ، ومع الحركة الصهيونية في فلسطين .

ما يلي : أنت يا فلان عيّناك أمير عشرة ، ولك الجباية في منطقة عين المريسة . وعليك أن تذهب آخر كل شهر أو آخر السنة وتأخذ الجباية من عين المريسة . وأنت يا فلان جعلناك أمير أربعين ، وسلمنا إليك المصيطبة ، ما يعني أنك ، حين يحين وقت الجباية ، تذهب إلى بيت المال وتقبض منه ما تمت جبايته من المصيطبة . أحياناً تكون هناك بلاد صعبة الجباية . والعسكر الذين يتم تجنيدهم لخدمة الدولة قلما يقبلون الخدمة إلاّ تحت إمرة زعمائهم . فتأتي الدولة ، في هذه الحال ، بزعمائهم وتعينهم أمراء ، وتمنحهم إقطاعاً ما . وعندما تمنحهم هذا الإقطاع فهي لا تعطيهم أرضاً ليمتلكوها ، بل تعطيهم الحق في جباية الضرائب . وفي بعض الأحوال ، إذا كانت جباية الضرائب صعبة ، يأمرون هذا «الأمير» بالقول له : إذهب واجْبِ الضرائب[1] . ومع ذلك يتحدثون عن «الإقطاع اللبناني» . وهذا ليس إقطاعاً . الإقطاع نظام أوروبي له تراتبيته ، وأناس تخضع لأناس ، والملك هو رأس هذا النظام . . . إلخ . هنا في لبنان لم يوجد هذا ولا ذاك . وهؤلاء الجماعة «الأمراء» لم يكن لهم أي رأي أو مشورة في حكم البلاد . إنهم مجرد عسكر وأمراء على العسكر . ومن جملة الأكاذيب ، بل الكذبة الكبيرة ، القول إن لبنان كان طول التاريخ محكوماً بأمراء من شعبه . وهذا غلط . كان هناك بالفعل ، ما يسمى «المقدمون» في بعض المناطق التي يسكنها أناس من ذوي المراس الصعب ، مثل جبة بشري وإهدن

(١) يظهر اسم فخر الدين ، على سبيل المثال ، في وثائق «أموري مهمة دفتري» التركية (سجل الأعمال العامة) كملتزم إحدى مقاطعات سوريا (صيدا ثم صفد لاحقاً) وله رتبة محددة هي «أمير لواء» .

والمنيطرة . فتأتي الحكومة وتعين شخصاً قوياً مقدماً عليها . والمقدّم هو من يجبي الضرائب ويقتص من المجرمين .

- أي يفرض الأمن .

● نعم ، يفرض الأمن . أما في حال قيام هذا المقدم بأمر خاطىء ، فيرسلون إليه بعض الجنود ويلقنونه درساً لا ينسى ، وأهم مثال على ذلك جبّة بشري . مَن يريد أن يدرس تاريخ لبنان قياساً على أوروبا في العصور الوسطى لن يتوصل إلى أي نتائج . العصور الوسطى في أوروبا لا تتطابق بالضرورة مع لبنان ، مع أن اسم لبنان لم يكن موجوداً . جبل صنين لم يكن في لبنان . صنين كان في كسروان وبعد صنين شمالاً يمكن القول إننا في لبنان[1] .

- لبنان هو بشري وجبة المنيطرة وبلاد جبيل فحسب .

(١) يقول كمال الصليبي في كتابه «بيت بمنازل كثيرة» (١٩٩٠) إن لبنان جبل في الشام من أعمال حمص ، وهو يتألف من جبة بشري وبلاد البترون وبلاد جبيل . كان جبل لبنان تابعاً دائماً لجند حمص ، بينما كان جبل كسروان وجبل الشوف ووادي البقاع تابعين لجند دمشق . أما جبل الشوف فكان تابعاً لولاية صيدا في بعض الحقب . ولبنان بحسب طنوس الشدياق هو «جبل بين طرابلس وبعلبك ممتد في فينيقيا من سورية الثانية» . وكانت سورية في عهد الرومان مقسّمة إلى ثلاث ولايات : سوريا الأولى عاصمتها أنطاكيا ، وسوريا الثانية عاصمتها أفاميا (غرب حماه) ، وسوريا الثالثة عاصمتها منبج . ولم تستعمل كلمة لبنان للدلالة على منطقة محددة إلا في سنة ١٨٦١ مع إنشاء المتصرفية .

● من المنيطرة للجبّة مروراً ببلاد جبيل والقويطع[1] . وبعد هذه الضنية ، ثم عكار . وهاتان المنطقتان لا تقعان في لبنان .

– الشوف لم يكن في لبنان؟

● الشوف كان منطقة قائمة بذاتها .

– وجبل عامل؟

● جبل عامل كان أمراً آخر وخارج الصورة تماماً . أما أن تأخذ هذه المناطق كلها ، وتسميها اسماً واحداً هو لبنان ، ثم تجعل لهذه المنطقة الجديدة تاريخاً جديداً ، فهذا هو التزوير . وأنا صححت مساري في الكتابة التاريخية بالتدريج ، لأن ثمة فكرة رسّخوها في رؤوسنا منذ طفولتنا ، وكنا نعتقد فعلاً أن لبنان أبدي سرمدي .

– الجبال في هذه المنطقة ليس لها أي خصوصية تاريخية ، إنما لها خصوصية مذهبية . فجبل لبنان كان الموارنة يسكنونه ، وجبل الشوف يسكنه الدروز ، وجبل عامل يقطن فيه الشيعة ، وجبال النصيرية في سورية يسكنها العلويون . فالخصوصية هنا هي خصوصية طائفية لا خصوصية قومية .

● نعم ، هناك خصوصية طائفية . وأحياناً لا توجد خصوصية طائفية . عكار مثلاً كان يسكن جبالها خليط من الأقوام . وجبال الضنية أيضاً . وحتى جبّة بشري مخلوطة ، كان فيها متاولة (شيعة) .

– والشيعة كانوا يسكنون كسروان أيضاً[2] .

---

(١) القويطع هي منطقة الأكراد الفقراء ، ومن قراها وجه الحجر ورأس نحاش (راس النحاس) ، وهي غير القاطع بين نهر الكلب وأنطلياس الذي هو جزء من كسروان .

(٢) كسروان هو الجمع بالفارسية لاسم «خسرو» أو كسرى بالعربية .

● في كسروان كان هناك خليط . والمؤكد أن لا شيء اسمه لبنان آنذاك . ويقول المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف في «دواني القطوف» إن لبنان الشمالي ، ولا سيما المنيطرة والعاقورة ونواحي البترون ، كان يسكنه النصيريون الذي امتدوا إلى كسروان بعد أن كانوا في جبال عكار والضنية فقط . وفي سنة ١٣٠٥ ميلادية واقعهم نواب دمشق وطرابلس وصفد وطهروا تلك الجبال منهم ، وأُمنت الطريق بعد ذلك لأنهم كانون يشوشون الراحة .

– لا يمكن دراسة تاريخ لبنان إلا من خلال تاريخ المنطقة . حتى أن أمراء لبنان ليسوا لبنانيين . فآل شهاب جاؤوا من مدينة شهبا في السويداء في جنوب سورية . وآل أبي اللمع كانوا دروزاً من حلب .

● لا ، بيت أبي اللمع من المتن .

– أقصد قبل مجيئهم إلى المتن .

● هذا اختراع . لقد كانت هناك عائلات أخرى مثل بيت الشاعر وبيت الصواف في المتن . كان هؤلاء مقدّمين في المتن ، ولا زالت هناك عائلة واحدة ممن حمل أفرادها لقب مقدّم هي آل مزهر في حمانا . وحتى المقاطعات اختلفت أسماؤها . برمانا مثلاً كانت في كسروان الخارجة ، أي القاطع الثاني . أما كسروان الداخلة فتمتد حتى جونيه . وهناك الفتوح ، حيث توجد المعاملتين[1] .

– المناصف والجرد والغرب . . . إلخ .

---

(١) المعاملتين جسر صغير يربط بين معاملة صيدا ومعاملة طرابلس ، أي بين منطقتين . وعند هذا الجسر كانت تجري ، في زمن العثمانيين ، معاملة الخروج من كسروان ومعاملة الدخول إلى سنجق طرابلس .

● المناصف هي المنطقة التي مركزها دير القمر وفيها كفرحيم وكفرفاقود . وهناك الشوف الحيطي والشوف السويجاني . شوف تسيطر عليه بعقلين وشوف تسيطر عليه بلدة أخرى[1] . . .

– لعلها الباروك؟

● لا ، الباروك يسمونه العرقوب . والعرقوب هو العضو في الجسم الذي إذا ضربته توقف الإنسان عن المشي .

– تقصد الكعب .

● أي المنطقة التي إذا ضَربت عليها حصاراً عسكرياً تشلها تماماً ، مثل العرقوب للإنسان . أما البلدة فهي المختارة .

– الغرب من سوق الغرب نزولاً حتى عرمون وخلدة[2] .

● الغرب كان تابعاً لبيروت ومنطقة الغرب تشمل الجرد وفيه بحمدون وبتاتر . . . إلخ .

– هناك كلام لأرنست رينان يقول إن كل شعب يجب أن يزور

---

(١) كان الشوف يُقسم إلى قسمين « الشوف الحيطي (أو الحيثي أو الحيتي كما يلفظه سكانه) وقاعدته بلدة المختارة ، والشوف السويجاني وقاعدته بلدة بعقلين .

(٢) كان الغرب مقسماً بدوره إلى التالي : الغرب الأسفل ، من الشويفات إلى حدود دير القمر ، امراؤه آل أرسلان وقاعدته بلدة الشويفات . والغرب الأعلى ، من دير القمر إلى عاليه ، قاعدته بلدة عيتات . وعلاوة على ذلك كان الشحار يمتد من الدامور إلى جسر القاضي وقاعدته بلدة عبيه ، والجرد قاعدته بلدة بتاتر ، والمناصف قاعدتها دير القمر ، والعرقوب قاعدته الباروك .

تاريخه ليصنع من نفسه شعباً متماسكاً[1] . ومثال ذلك اليهود عندما أرادوا تحويل الدين إلى قومية اخترعوا تاريخاً له أول وليس له آخر .

● الفرنسيون أنفسهم فعلوا ذلك . فرنسا صارت دولة بعدما اجتاحت القبائل الجرمانية البلاد . فرنسا لم تظهر عندما كان فيها شعب «الغالوا» مثل أهالي ويلز . «الغالوا» اليوم غير موجودين إلاّ في بريتاني . واللغة الفرنسية متحدّرة من اللاتينية وليس من لغة أهالي بريتاني .

– عرضت بشكل مختصر قصة مشروع لبنان الكبير الذي هو مشروع البطريرك الياس الحويك . ويقال إن أصل البطريرك الياس الحويك من عين حليا ، وجده يدعى شلهوب العوام ، وكان أرثوذكسياً . ثم نزحت العائلة إلى شمال لبنان وتمورنت ، وامتهن أفرادها الحياكة ، لذلك سُمِّي جدهم الحويك . المهم ، إنك تقول إن مشروع لبنان الكبير كان مشروع البطريرك الياس الحويك والمطران عبد الله الخوري ، وإن الذي وضع المخطط هم كاثوليك دمشق وأدباء أمثال بولس نجيم[2] .

---

(١) يقول ارنست رينان «إن صناعة وطن تقوم على تزوير تاريخه الخاص» (أنظر : حوار مع هنري لورنس وآفي شلايم في «لوموند دبلوماتيك» الطبعة العربية ، كانون الثاني ٢٠١١) .

(٢) ولد بولس نجيم في جونية سنة ١٨٨٠ . حاز الدكتوراه في القانون والعلوم السياسية من إحدى جامعات باريس . عاد إلى لبنان في سنة ١٩٠٨ ، وراح يشارك في الحياة السياسية في كسروان التابعة لمتصرفية جبل لبنان . عينه المتصرف أوهانس قيومجيان رئيساً لقلم الأجانب في سنة ١٩١٣ . نفي خلال الحرب العالمية ==

● بولس نجيم لم يكن معهم ، أعتقد أنه كان موظفاً في المتصرفية .

- هو مؤلف كتاب «المسألة اللبنانية» .

● صحيح . كان لدينا جيران بينهم امرأة قريبة له . وقد بدّل بولس نجيم اسمه إلى «جو بلان» . وعندما قرأت ذلك الكتاب اعتقدت أنه فرنسي ، إلى أن اكتشفت أنه لبناني .

- هل وثائق هذا المشروع متوافرة؟

● لا أستطيع أن أقول لك إنها متوافرة ، لأنني لم أشتغل عليه . وعندما قرأت ما أنجزه بعضهم في هذا الشأن استفدت كثيراً . وكان لدي طالب أصبح فيما بعد زميلاً ، وهو فهيم جداً ، ولديه الروح التاريخية الصحيحة ، وهو من عائلة طرابلسية هو مروان بحيري ، وكان جامعاً للكتب . ولأن والدته من آل سارافيان وهي عائلة أرمنية هبطت لبنان قبل قصة مذابح الأرمن ، أي منذ القرن التاسع عشر ، وتاجرت مع العالم العربي ومع اليمن ، وكان لديها مركز في الحُديدة ، وهذه العائلة

= الأولى ، ثم عاد في عهد الانتداب الفرنسي ليعين مدعياً عاماً لمحكمة الاستئناف . دعا إلى تكوين لبنان بحسب خرائط الأركان الفرنسية لسنة ١٨٦١ ، وكان نشر كتاباً بعنوان «المسألة اللبنانية» في سنة ١٩٠٨ ، ثم نشر دراسة أخرى بالعنوان نفسه في «المجلة الفينيقية» (آب ١٩١٩) . توفي في فرنسا سنة ١٩٣١ . أما خرائط الحملة العسكرية الفرنسية على سوريا التي بدأت في ١٨٦٠/٨/١٦ فتنص ، بحسب الجنرال شارل دي بوفور دوتبول قائد الحملة على قيام نظام مسيحي في جبل لبنان يتولى زعامته أحد الشهابيين (مجيد شهاب) يكون ضمانة للمسيحيين في سوريا كلها ، على أن تلحق به موانىء صيدا وبيروت وطرابلس ، وكذلك سهل البقاع ونواحي حاصبيا وراشيا .

كانت مغرمة بجمع الصور والكتب والوثائق . وقد أطلعني مروان بحيري على وثيقة تتضمن خطة لإنشاء لبنان الكبير Grand Liban وشق طريق مهم يربط بيروت بدمشق ، على أن يكون لبنان الكبير مرتبطاً بالداخل السوري لأسباب منها أن لبنان هذا سيقوم على ساحل البحر ، وسيكون له شأن في التجارة ، فيستورد البضائع من الخارج وينقلها إلى بقية أرجاء سوريا . وتلحظ الخطة حتى الفنادق التي لن تكون لخدمة بيروت وحدها ، بل للمنطقة كلها . ولاحظت الخطة أن لبنان الكبير هذا ، مع أنه ينتج الفاكهة الطيبة والخضروات ، إلا أنه لا ينتج المواد الأساسية بكميات كافية كالقمح مثلاً ، وهو سيموت جوعاً إذا فرض الحصار عليه يوماً . لذلك سيعتمد لبنان على الداخل الزراعي السوري لتأمين حاجات سكانه . ولهذا السبب سيكون من الضروري وجود شبكة طرق وسكك حديد وقطارات ، فهو يحتاج إليها لأن مساحته ضيقة ، ويجب إقامة محطات على الطريق إلى دمشق ، وخصوصاً لأن في وسطه عوائق طبيعية تحتاج إلى ما يساعد القطار على صعود الطلعات القوية . وهو يحتاج أيضاً إلى «كروسة» ، أي طريق معبدة .

- لقد أنشأوا هذه الطريق ومعها شركة «ديليجانس» أيضاً[١] .

(١) الديليجانس شركة للنقل بين بيروت ودمشق بواسطة عربات الخيل . وكانت لها محطات على الطريق لتبديل الخيول والراحة مثل محطة بحمدون ومحطة صوفر ومحطة شتورا ومحطة خان ميسلون . وكانت طريق بيروت – دمشق قد شُقت في سنة ١٨٥٧ . أما خط سكة حديد بيروت – دمشق فقد بوشر العمل فيه سنة ١٨٩٢ وانتهى في ١٨٩٥/٨/٣ . وكان الوصول إلى دمشق على ظهور الدواب يستغرق أربعة أيام ، فصار يحتاج في عربات الديليجانس إلى ثلاث عشرة ساعة ، وفي عربات القطار تسع ساعات .

● وسّعوا الطريق القديمة . وأطلعني مروان بحيري على دراسات تقول إن هؤلاء المخططين ذهبوا إلى مكان قريب مما أصبح اليوم مطعم الأمين الذي يطبخون فيه الكروش أو ما يسمى «أكلة الغمة» ، وهذا المطعم كان يملكه أحد الذين عملوا في مطعم فيصل واسمه أمين .

- أهو القائم اليوم على طريق الحازمية؟

● نعم ، على طريق الحازمية . وقريباً منه نحو الأعلى وضعوا طريقة لقياس مدى استخدام الطريق وهل يحتاج إلى توسعة . وكان ذلك قبل سنة ١٩٠٠ ، وكانوا يدرسون المدى الملائم لتوسيع الطريق حتى يستوعب حركة التجارة التي اعتقدوا أنها ستزدهر هناك ، علاوة على حركة المسافرين . هؤلاء المخططون كانوا جماعة من الأذكياء وممن يستعملون عقولهم ، ويخططون بطريقة منظمة . وقد أراني مروان بحيري دراسات تتعلق باستثمار مياه عين الصحة في جبل الكنيسة ، الواقعة فوق بلدة فالوغا بالتعاون مع شركة vetal . إحدى تلميذاتي اسمها كارول حكيم درست الناحية السياسية ـ الجغرافية (الجيوبوليتيك) في تلك الفترة وتوصلت إلى تحديد تلك الخريطة التي وضعها الفرنسيون سنة ١٨٦١ ، والتي ظلت مثل السر المقدّس المحفوظ بعناية فائقة . لم ينشر مروان بحيري هذه الخريطة ، وكارول حكيم لم تنشر ذلك بدورها . وكثيراً ما طلبت منها أن تنشر ما توصلت إليه حتى لا نبقى نردد أننا شاهدنا هذه الخريطة ، واطلعنا على خطة لبنان الكبير من دون أن يكون في أيدينا وثائق هذه الخطة .

هناك أمور كثيرة تُظهر الحيوية في لبنان التي لم تكن موجودة في أماكن أخرى . والسبب ليس أن اللبنانيين أفضل من غيرهم ، لكن لأن بلاد اللبنانيين كانت منفتحة على الإرساليات المسيحية التي جاءت

وافتتحت مدارس . وهذه المدارس افتتحت بدورها مدارس أخرى . فالتلاميذ الذين درسوا في روما عادوا وافتتحوا مدارس . والموارنة والكاثوليك الذين التحقوا بسلك الرهبنة الأوروبية ، عادوا وافتتحوا مدارس . البروتستانت جاؤوا وأسسوا الجامعة الأميركية في بيروت . واليسوعيون «الجزويت» أسسوا جامعة القديس يوسف ومدرسة غزير . وحتى «المسكوب» الروس أيضاً . ربما كانت وضاعة الشعب في ذلك الوقت وعدم تبجحه وعدم ادعائه الأمور الفارغة جعله ، ذلك كله ، يتقبل التعلُّم . لكن عندما ضرب البخار رأس هذا الشعب ، صار لديه غرور لا يطاق[1] . ومع أن هذا الغرور زال إلى حد ما ، إلا ان بعض الغرور بقي لديه ، وتجسد ذلك في الحاجة إلى الدعم الخارجي الدائم كي يستمر في تجارته .

---

(١) يذكر كمال الصليبي في مذكراته الموسومة بعنوان «طائر على سنديانة» (عمان : دار الشروق ، ٢٠٠٢) ان البطريرك بولس المعوشي قال له في سنة ١٩٥٩ : «أتريد أن تعرف كيف أفهم تاريخ الموارنة؟ نحن شعب مخه يابس مثل صخور هذا الجبل ، وما تاريخنا إلا قرون من معاندة الدهر» . وكتب فؤاد أفرام البستاني في جريدة «الحياة» (١٩٥٧/٧/٤) ان «لبنان يستند إلى ستة آلاف سنة من حضارة إنسانية بناها على نحت الصخر وصهر المعدن وتقويم المحراث وتدوير العجلة» ، ما يعني أنه شعب جبلي الأصول .

لبنان وسورية والقطيعة

- كنت أراجع رسائل إبراهيم طوقان إلى أخته فدوى . فاكتشفت أن إبراهيم كان يرسل رسائله من الجامعة الأميركية في بيروت ، واستمر في ذلك حتى سنة ١٩٣٧ ، وكان يكتب عنوانه كالتالي : الجامعة الأميركية ، بيروت - سوريا .

● في طفولتي ، وحتى الحرب العالمية الثانية تقريباً ، كان من الطبيعي أن تأتينا رسائل إلى بحمدون مكتوب عليها : «بحمدون - ليبانون - سيريا» ، أو أحياناً «بحمدون - سيريا» . والسبب هو أن المرسلين من أوروبا استعملوا العبارة الجغرافية بدلاً من العبارة السياسية التي لم تكن عصبة الأمم تعترف باستقلال لبنان حتى ذلك الوقت . وأنا أذكر عندما كنا مجرد أولاد ، وأعمارنا حوالى ٦ أو ٧ سنوات ؛ وكنا نلعب ، في إحدى المرات في إحدى معاصر الدبس المهجورة في وسط بحمدون ، وإذا بسيارة عسكرية فرنسية تمر ، فبادر الجنود إلى تحيتنا بقولهم «بونجور» . ونحن حييناهم بأحسن منها . ولا أدري من خطر في باله أن يسأل : هؤلاء فرنساويون ، ونحن ماذا؟ أما الأجوبة فكانت كما يلي : بعضنا قال : نحن أولاد عرب . بالحرف أولاد عرب وليس عرباً . وبعضٌ قال : نحن سوريون .

- إجابتان فقط لا ثالث لهما .

● بالضبط . نحن عرب أو سوريون .

– في أي سنة كان ذلك؟

● في سنة ١٩٣٥ أو ربما في سنة ١٩٣٦ . كانت العملة في سورية ولبنان واحدة . وكان يصدرها بنك سوريا ولبنان الموجود في بيروت ودمشق . وهو وارث البنك العثماني الذي كانت تملكه بريطانيا . وكان أمراً مستغرباً أن بريطانيا كانت صاحبة البنك الذي يصدر عملة الانتداب الفرنسي . كان البنك يأتي بصورة من لبنان كبعلبك أو الأرز ويضعها على العملة المعدنية ، ويأتي بصورة من سورية كتدمر مثلاً ويضعها على العملة المعدنية . وتُصرف هذه العملة الواحدة في لبنان وفي سورية معاً ، ولا فرق إطلاقاً بينها ، وكنا نسمي هذه القطع كلها ليرة سورية . وكلامي هذا لا يعني أن لبنان يجب أن يعود جزءاً من سورية ، بل يعني أن البلدان تتطور ، ولا تخلق كما هي . أما أن نخترع نظرية مزورة لتفسير تاريخ لبنان الأبدي السرمدي ، أو لتفسير علاقة لبنان بسورية ، فهذا ليس في محله . ولكن ما يجب أن يكون في محله تماماً فهو قول الحقيقة . والحقيقة تقول إنه لم يكن بين البلدين جمارك أو حدود . أما متى بدأنا نشعر بأننا لبنانيون فأذكر عندما التحقت بالمدرسة الاستعدادية ، أو IC اليوم ، كان أول من تعرفت إليه هو يوسف إيبش[1] ، من دمشق . وصار صديقي مدى العمر . وحين التحقت بمدرسة برمانا الداخلية ، كان نصف التلاميذ ، إذا لم يكن

(١) ولد يوسف إيبش في دمشق سنة ١٩٢٦ . حاز الدكتوراه من جامعة هارفارد سنة ١٩٦٠ ، وعين أستاذاً للدراسات الإسلامية في الجامعة الأميركية في بيروت . انتقل إلى كيمبردج وعمل أستاذاً فيها بين ١٩٩١ و١٩٩٢ . مدير مركز الفرقان للتراث الإسلامي في لندن سنة ١٩٩٣ . توفي في لندن في ٢٠٠٣/١/١٩ .

أكثر ، من حلب وحمص وحماه من آل البرازي وغيرهم . هؤلاء ربينا معهم ، وربينا أيضاً مع أصدقاء من الناصرة ومن يافا ومن عكا ومن القدس ، من دون الإحساس بأي فارق . إلاّ بأمر واحد هو أن هؤلاء كانوا يحتاجون إلى جوازات سفر للذهاب إلى فلسطين ، ونحن لا نحتاج إلى جوازات سفر للانتقال من برمانا إلى سورية .

– كانوا يحتاجون جوازات سفر ولكن لم يكونوا يحتاجون تأشيرات .

● صحيح . غير أننا لم نكن نستطيع السفر إلى فلسطين بسهولة ، بينما هم يستطيعون ذلك . فنحن ، حتى نتمكن من الذهاب إلى فلسطين كنا نحتاج معاملة ما .

– لأن فلسطين كانت واقعة تحت الانتداب البريطاني ، بينما لبنان وسورية كانا تحت الانتداب الفرنسي .

● ربما . لكننا إذا أردنا الذهاب إلى الشام فالهوية الشخصية تكفي ولا نحتاج جواز سفر . والعالم الذي عشنا فيه كان غير هذا العالم . الإنسان اللبناني اليوم لا يُلام إذا لم يفهم هذا العالم . الإنسان اللبناني الآن يعتقد أن كل شيء غير لبناني هو أجنبي حتى لو كان يتكلم العربية . بدأنا نشعر أننا لبنانيون مع استقلال لبنان حين «نزلوا من راشيا» سنة ١٩٤٣ ، وأنا كنت في ساحة الدباس وشاهدت هذا الاحتفال وسمعت الهتافات[1] . والاستقلال لم يكن للبنان وحده ،

(١) المقصود إلى عبارة «نزلوا من راشيا» هو إطلاق بشارة الخوري ورياض الصلح ورفاقهما الذين سجنهم الاحتلال الفرنسي في قلعة راشيا ثم نزولهم إلى بيروت بعد إطلاقهم .

بل للبنان وسورية معاً . مشيت حتى السراي الفرنسية التي أزالوها وكانت تحفة معمارية في أيام بني عثمان ، وأقاموا قريباً منها سينما ريفولي وموقفاً للسيارات في مكانها[1] . ذهبت إلى السراي ورحت أدور حولها وأنظر إلى حجارتها الجميلة وحيطانها الرملية الجميلة جداً ، وقلت لنفسي : نحن أصغر بلد عربي ، وقد صار لنا استقلال . نحن وسورية صار لنا استقلال حقيقي ، وكان ذلك أول استقلال عربي .

استقلال العراق كان كذباً ، لأن بريطانيا ظلت تحتفظ بحقوق عسكرية بموافقة عصبة الأمم . واستقلال مصر كذلك ، فقد ظلت مصر مُحتلة . أنا ابن الرابعة عشرة لم أفكر في لبنان وحده آنذاك ، بل في لبنان وسورية معاً . ثم عندما قصف الفرنسيون من أنصار حكومة فيشي دمشق طلب الإنكليز متطوعين لمساعدة الجيش البريطاني في إخراج الفرنسيين الفيشيين ، بالقوة ، من سورية . كان هذا في ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، أي قبل الجلاء عن لبنان . أخي الأكبر خليل تطوع في الجيش البريطاني هو ومجموعة من طلاب الـ AUB حتى يساعدوا السوريين والإنكليز على طرد الفرنسيين من سورية . لم يسأل أحد من هؤلاء هل ان السوريين أجانب؟ لم يسأل أحد مثل هذا السؤال ، لأن الأمر

(١) كانت سينما ريفولي تقع في الجانب الشمالي من ساحة البرج أو ساحة الشهداء . وقد جرى هدمها في تسعينيات القرن العشرين في أثناء جرف ركام المباني في الوسط التجاري لمدينة بيروت الذي قامت به شركة «سوليدير» . وكانت سينما ريفولي تحفة معمارية ، وظلت قائمة طول فترة الحرب الأهلية ، وكان من الممكن ترميمها والمحافظة عليها . لكن جشع الرأسمالية العقارية التي لا تهمها القيم الجمالية على الإطلاق أدى إلى تدمير هذا المبنى الجميل .

الطبيعي هو أن يساعد هؤلاء سورية ؛ فهم يعتبرون سورية بلدهم . أما متى صار هناك شعور مختلف بالوطنية اللبنانية فدعني أقول ما يلي : كان هناك بار اسمه Dug Out في بيروت قريب من فندق النورماندي في الزيتونة ، وما عاد موجوداً اليوم بالطبع . وكان هذا البار يقع تحت مطعم لوكولوس ومقابل شركة «نيرن» للسفريات إلى العراق . وهذا البار كان مرتع الضباط الإنكليز في أيام الحرب . وظل هذا البار يعمل حتى بعد الحرب ، وأحبه الناس وكانوا يذهبون إلى السهر فيه شباناً وصبايا . وكنا نذهب إليه مداورة ، وفي كل مرة يدفع شخص واحد منا الفاتورة . وفي إحدى المرات كان والدي قد «تكارم» علي ومنحني خمسين ليرة ، وهو مبلغ مهم في ذلك الوقت . فقلت لأصدقائي : الدور علي هذه المرة . وكان ذلك في سنة ١٩٥٠ على الأرجح . أكلنا وشربنا «وهيّصنا» وجاء وقت الانصراف ، فناديت النادل الذي أحضر لي فاتورة الحساب ، فأعطيته النقود الورقية التي كانت في حوزتي والصادرة عن بنك سورية ولبنان الذي كان ما يزال يطبع عملتي البلدين ، لكنه بات يضع اسم سوريا فوق الأوراق الخاصة بسورية ، واسم لبنان فوق الأوراق الخاصة بلبنان . وأنا لم أنتبه إلى كلمة Syrie على الخمسين ليرة التي في حوزتي ، والتي لم يكن ثمة فارق بين العملتين في أي حال . باختصار ، عاد الغرسون وقال لي إن هذه العملة غير مقبولة[1] . فقلت له : لماذا ليست مقبولة؟ فقال : هذه عملة سورية . وكانت هذه المرة

(١) في ١٩٤٨/١/٢٦ صدر بلاغ عن الجهات اللبنانية المختصة يتضمن ما يلي : ابتداءً من ٢ شباط ١٩٤٨ لن يبقى في لبنان أي قوة إبرائية لغير العملة اللبنانية ، ومَن يملك أوراقاً مالية عليها عبارة سورية عليه أن يستبدلها بأوراق نقدية عليها عبارة لبنان .

الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكلام . وأضاف النادل : نحن ما عدنا نقبل غير العملة اللبنانية ، لأن ثمة فارقاً ضئيلاً في السعر بين العملتين قد وقع لمصلحة العملة اللبنانية . ومنذ ذلك الوقت راح يتطور شعور بأن هذا لبناني وذاك سوري . ثم صارت القطيعة الاقتصادية ، وصار بين البلدين جمارك[1] .

– وقعت القطيعة في عهد خالد العظم عندما فك المصالح المشتركة بين البلدين كالجمارك والعملة والترانزيت[2] .

---

(١) بعد جلاء الفرنسيين عن سورية في ١٩٤٦/٤/١٧ وعن لبنان في ١٩٤٦/١٢/٣١ جرى تأسيس «المجلس الأعلى للمصالح المشتركة» بين البلدين ، وتولى هذا المجلس الإشراف على الجمارك وإدارة حصر التبغ والتنباك (الريجي) وسكة حديد بيروت – دمشق والعملة . وفي ١٩٤٩/٧/٨ وقع البلدان اتفاقية الوحدة الاقتصادية في بلودان . لكن لبنان امتنع عن تنفيذ هذه الاتفاقية . وفي ١٩٥٠/٣/٧ أعلن خالد العظم أن على لبنان أن يقبل إما الوحدة الاقتصادية أو القطيعة . وقد رفض لبنان ذلك في ١٩٥٠/٣/١٣ ، فما كان من الحكومة السورية إلا أن طالبت لبنان بتطبيق القطع الأجنبي على المبادلات التجارية بين سورية ولبنان ، أي سداد قيمة الواردات من سورية إلى لبنان بالعملة الصعبة . رفض التجار اللبنانيون ذلك ، وتحولوا إلى استيراد القمح من أميركا وكندا بالعملة الصعبة بالطبع . عند ذلك أقدمت الحكومة السورية على اتخاذ قرار فك المصالح المشتركة .

(٢) ولد خالد العظم في دمشق في ١٩٠٣/١١/٦ . تولى رئاسة الحكومة السورية في ١٩٤٩/١٢/٢٧ . لقب بـ «الباشا الأحمر» لتعاونه مع الشيوعيين . غداة انقلاب الضباط البعثيين في ٨ آذار ١٩٦٣ الذي حمل حزب البعث إلى السلطة لجأ إلى السفارة التركية في دمشق . وعاش ، في ما بعد ، في بيروت إلى أن توفي فيها في ١٩٦٥/٢/١٨ .

● تماماً . وفوق ذلك كان المسلمون في لبنان مع السوريين أكثر من السوريين[1] . ولذلك «نقز» المسيحيون من السوريين . وهذا الواقع الجديد لم يكن موجوداً أبداً ، فنحن لنا أقارب في سورية ولا أجد أي فارق بيننا .

– في شأن مشروع إنشاء لبنان على أيدي كاثوليك دمشق ، هل هناك أسماء أخرى ممن خطط هذا المشروع غير بولس نجيم والياس الحويك والمطران عبد الله الخوري؟

● هناك أسماء كثيرة مثل جورج سمنة[2] . وجورج سمنة لم يكن لبنانياً على الإطلاق .

– أَليس لبنانياً؟

● لا . أعتقد إنه سوري وشامي بالتحديد . وفي أي حال لم يكن هناك لبناني وسوري . ومن الصعب التفريق بين الاثنين في ذلك الوقت .

– بما أننا نتكلم على أحوال الأشخاص ، يقال إن أكثر من ٧٠٪ من سكان لبنان كانوا ضد قيام لبنان . أهل طرابلس والشمال كانوا ضد الانضمام إلى لبنان . وأهل بيروت ومؤتمرات الساحل المشهورة اتخذت موقفاً واضحاً من لبنان . وكذلك أهل الجنوب في مؤتمر

---

(١) يروي المحامي عبد الحميد الأحدب ان مباراة لكرة القدم جرت على ملعب المنارة في بيروت سنة ١٩٤٥ بين منتخب سورية ومنتخب لبنان ، فتحمس لبنانيون كثيرون للفريق السوري أكثر من حماسة السوريين لفريق بلدهم (النهار ، ٢٠٠٩/١٢/٢) .

(٢) جورج سمنة من دمشق (روم كاثوليك) . له كتاب بالفرنسية عنوانه «المسألة السورية» صدر في سنة ١٩١٨ .

وادي الحجير الذي أعلن أن أهل الجنوب ليسوا لبنانيين[١] . وبهذا المعنى فإن لبنان هو لبنان المتصرفية وحدها . ويقال أيضاً ان المسلمين ، السنة منهم بالتحديد ، كانوا يطالبون بالوحدة السورية لا حباً بالوحدة مع سورية ، بل للاستقواء بسورية على الموازنة حتى يتمكنوا من تحسين موقعهم في إطار الكيان اللبناني الجديد . إلى أي مدى تجد بعضاً من الصحة في هذا الكلام؟

● من المحال أن يتمكن المؤرخ من قول الواقع في هذه القضية ، لأن الذين شاركوا في أحداث تلك الفترة ماتوا . ومعظم الكلام الذي قاله مَن بقي في قيد الحياة «تجليط» أكثر منه حقيقة . خذ صائب سلام مثلاً . فقد كان يدعو إلى الوحدة السورية ـ المصرية بقيادة جمال عبد الناصر . أنا أعرف صائب سلام جيداً ، وهو شخص سياسي ، والسياسي يقول أحياناً ما هو ضروري وليس ما هو صحيح . وأعتقد أن ليس هناك شخص في لبنان كانت لديه كيانية لبنانية مثل صائب سلام . وهو الذي أطلق شعارات ما زالت موجودة حتى اليوم مثل «لا غالب ولا مغلوب» و«لبنان واحد لا لبنانان» . وأود أن أروي في هذا السياق الحادثة التالية : في سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ كنت أستاذاً زائراً في دائرة التاريخ بجامعة هارفارد . وكان بين كل أربعة مكاتب للأساتذة مكان لشرب القهوة وللتحادث . وكان هناك شاب في مثل عمري تقريباً من طرابلس ، يدعى أحمد الحفار ، ما عدت أعرف عنه شيئاً ،

(١) عقد مؤتمر وادي الحجير عند نبع نهر الحجير في الجنوب اللبناني في ١٩٢٠/٤/٢٤ ، وحضره نحو ٦٠٠ رجل . وقرر هذا المؤتمر الموافقة على مقررات المؤتمر السوري العام الذي اختار الأمير فيصل ملكاً دستورياً على سورية في ١٩٢٠/٣/٧ ، ورفض الحماية الفرنسية ، والإصرار على التحاق جبل عامل بسورية .

وانقطعت المراسلات بيننا . وكان أحمد الحفار آنذاك قد نال منحة لكتابة بحث عن الإسلام والفرنسيين . وكانت لديه مكتبة كبيرة جداً . وكنت حينذاك ما زلت أرى أن المسلمين ، وخصوصاً السنة ، لا يحبون الفرنسيين . غير أنني وجدت أحمد الحفار يتكلم كلاماً آخر ، ليس مثل كلام المسيحيين فحسب ، بل إنه ذهب إلى رسم صورة للعلاقات الإسلامية الفرنسية في لبنان في القرنين الماضيين ، وحتى في أيام الصليبيين ، مخالفة جداً للصورة التي أعرفها . وجرت بيننا أحاديث متشعبة خلاصتها أن ما تقوله الناس في هذا الشأن غلط ، فقد اكتشفت وجود حركة إسلامية كانت تطالب بحماية فرنسا حين تنفصل البلدان العربية وتستقل عن الدولة العثمانية . ومن رموزها جِدْ رياض الصلح وعبد القادر الجزائري وغيرهما . وهؤلاء استغلوا الحرب بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٨٦ جراء مشكلة بلغاريا للمطالبة بالانسلاخ عن الدولة العثمانية . وبالطبع لم ينجح هذا المسعى فعادوا عنه . والدولة العثمانية كانت حكيمة فلم تقتص منهم وأرسلت إليهم مدحت باشا وسامحتهم . وهذه القصة موجودة في مذكرات عادل الصلح الموسومة بعنوان «سطور من الرسالة»[١] .

(١) صدرت هذه المذكرات في بيروت سنة ١٩٦٠ وفيها يروي عادل الصلح أن حركة أهلية قامت في بلاد الشام في سنة ١٨٧٧ لغاية واحدة هي استقلال هذه البلاد . وكان من أقطاب هذه الحركة أحمد الصلح والأمير عبد القادر الجزائري وأحمد عباس الأزهري . وعقد هؤلاء اجتماعات سرية مع أعيان الداخل السوري في بيروت وفي دمشق في منزل تقي الدين الحصني ، وأسفرت الاجتماعات في سنة ١٨٧٨ عن اختيار عبد القادر الجزائري أميراً على سورية ، والسعي لتحقيق استقلال الديار الشامية عن الدولة العثمانية .

المتنبي كان كيسانياً

- كان بعض السنة يعتقدون أن انضمامهم إلى سورية سيجعلهم قليلي الأهمية المالية في وسط التجار الشوام . فمن هم تجار بيروت بالنسبة إلى تجار الشام وحلب؟ ولكن السنة في لبنان سيكون لهم الموقع الثاني بعد الموارنة ، ويمكنهم تحسين موقعهم لاحقاً بالاستقواء بالداخل العربي ، وبالتحديد سورية . وراحوا يبررون هذه المصالح بفكرة الانفصال والاتصال التي صاغها كاظم الصلح . وفي هذا السياق شاع شعار يقول إن لبنان وطن ملجأ للأقليات المضطهدة . والحقيقة أن السنّة ليسوا من الأقليات في المشرق العربي ، والدروز لم يأتوا إلى لبنان هرباً من الاضطهاد ؛ فالتنوخيون كانوا سنّة واعتنقوا المذهب الدرزي في ما بعد[1] . في

---

(١) التنوخيون قبيلة عربية تنتسب إلى الأمير تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة . وكانوا أول مَن عمر الحيرة ، ثم قاتلوا مع أبو عبيدة بن الجراح في فتوح الشام . كانوا نصارى ثم اعتنقوا الإسلام . نزلوا في منطقة الغرب في عهد أبو جعفر المنصور سنة ٧٣٦ ميلادية . أما التنوخيون الذين قطنوا بلدة البيرة القريبة من سوق الغرب فكانوا من القرامطة على الأرجح . ومن أمراء التنوخيين آل أرسلان وآل علم الدين وآل بحتر . وقد قبل بعضهم الدعوة الدرزية في سنة ١٠٢٦ ، وكان من بين هؤلاء ==

رأيكم ، في أي سياق ارتفع شعار «لبنان وطن ملجأ»؟

● الذي أعرفه أن الذي بلور هذه الفكرة هو الأب هنري لامنس . لبنان ، منذ البداية ، كان فيه كثافة إسلامية أكثر مما يتصور الناس . بيروت بعد الفتوحات الإسلامية ، بحسب المؤرخ صالح بن يحيى ، راحت تتحول إلى مدينة يتزايد فيها المسلمون بالتدريج ، ويتناقص فيها المسيحيون حتى صارت على ما هي عليه اليوم . هذا في بيروت . أما طرابلس فكانت مدينة إسلامية إلى أن جاء الفرنجة وهدموا طرابلس القديمة التي كانت تقع على البحر ، وبنوا طرابلس جديدة التي هي طرابلس الحالية ، ثم ظهرت طرابلس الميناء أو الاسكلة بالتركي . ومدينة صيدا خضعت للأمر نفسه ، وصور أيضاً . بينما اللاذقية كان فيها نصارى كثر ، وكذلك طرطوس . وشمال سورية كله ، مثل معرة النعمان ، كان يعج بالنصارى . لكن منطقة بعلبك ومعها البقاع كان الوجود الإسلامي فيها ظاهراً ، والإسلام هناك لم يكن شيعياً بل يميل إلى التشيّع . وأعتقد أنهم كانوا ممن اعتقدوا أن الإمامة بعد الإمام الحسين يجب أن تذهب إلى محمد ابن الحنفية . ومحمد ابن الحنفية مات وله ولد مفترض اسمه أحمد بن محمد الحنفية ، ولكن هذا الابن دخل إلى جبل رضوى في الحجاز وغاب ، وسيعود لإحقاق الحق وإزهاق الباطل بحسب عقائدهم . وهؤلاء هم الكيسانية ، ومن هؤلاء القرامطة .

– أكان في البقاع كيسانية؟

== جد الأمير بحتر التنوخي . والأمير بحتر بدأ نجمه يصعد في سنة ١١٤٧ مع تقدم جيوش الحملة الفرنجية الثانية من فلسطين إلى دمشق بعدما ساهم في قتال جيوش الفرنجة .

● أكثر الناس يعتقدون أن القرامطة هم إسماعيليون . أنا أخالف هذا الاعتقاد ، لأن من عاش في ذلك العصر أمثال الطبري وغيره يقولون إن عقيدة القرامطة هي الكيسانية . والكيسانية هي فوضى قبلية[1] . وكان بعض المفكرين الشيوعيين العرب يرون في تجربة القرامطة نواة

---

(١) القرامطة هم أتباع الحركة القرمطية التي أسسها حمدان بن الأشعث القرمطي وميمون القداح وابنه عبدان وأبو سعيد الجنابي في القرن الثالث الهجري . وحمدان القرمطي أصله من الأحواز (خوزستان) ، وأقام في سواد الكوفة قبل أن يعلن دعوته من بلدة واسط (بين الكوفة والبصرة) في سنة ٢٥٨ هجرية (٨٧١ ميلادية) . وفي سنة ٢٧٨ هجرية أعلن الثورة ، وكان معه صهره عبدان القداح وزكرويه بن مهرويه وأبو سعيد الجنابي . أسس الدولة القرمطية في البحرين سنة ٢٨٦ هجرية التي عاشت نحو ١٠٠ سنة قبل أن يقضي عليها العباسيون في سنة ٣٧٨ هجرية . أما الكيسانية فهم أنصار المختار بن أبي عبيد الله الثقفي الذي دعا إلى بيعة محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . وقد ادعى المختار الثقفي ، في ما بعد ، النبوة ، وقضى عليه مصعب بن الزبير في الكوفة سنة ٦٧ هجرية . وتعود كلمة الكيسانية إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب ، وكنيته أبو عمرة . وتعتقد هذه الفرقة أن الإمامة بعد علي منصوصة لابنه محمد بن الحنفية لأن علياً دفع إليه رايته في يوم الجمل بالبصرة سنة ٣٦ هجرية دون إخوته ، تماماً مثلما كان علي صاحب راية الرسول . وتعتبر الكيسانية محمد بن الحنفية المهدي المنتظر الذي غاب في جبل رضوى في الحجاز مع أربعين من حججه . وقد انقسمت الكيسانية بعد وفاة عبد الله بن محمد الحنفية (أبو هاشم) إلى فرق عدة منها الراوندية ، ومنها فرقة تزعمها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وادعى الألوهة ، وأن روح الله حلّت فيه . وتفرع من الكيسانية الخرمية والمزدكية .

للشيوعية العربية . لا شيوعية ولا شعب كادح بل فوضى شعبية لشعب فوضوي . والقرامطة جماعة خربت ما أصبح اليوم العراق ، وخربت الجزيرة العربية ، ووصلت إلى نصف اليمن فلم يبْقوا فيها شيئاً ، وأخذوا الحجر الأسود وكسّروه ولا زال مكسّراً حتى الآن . وبقيت الحال على هذا المنوال حتى ظهر رجل عالي الهمة على قدر المهمة اسمه كافور الإخشيدي ، فحاربهم ولم يستطع القضاء عليهم فبرطلهم ليعيدوا الحجر الأسود ، ثم عيّن أميراً على مكة . وهكذا ازدهرت إمارة مكة وانتهت الفوضى . أما الكيسانية فبقيت إلى أن اختفت نهائياً بعد نحو ٢٠٠ سنة . وللأسف في شأن كافور الإخشيدي ، ظهر شخص طويل اللسان اسمه المتنبي هجاه بقصيدة لاذعة وجارحة . ولولا كافور الإخشيدي لما بقي إسلام سني في العالم .

- **إذاً القرامطة كيسانية وليسوا إسماعيلية؟**

● أنا أعتقد أنهم كيسانية ، والبرهان على ذلك ما كتبه الطبري الذي عاش في ذاك الوقت . لكن الكيسانية لم يدرسها أحد ، بل انصبت الدراسات على الإسماعيلية وركّبوا الإسماعيلية على الكيسانية .

- **لكن التاريخ يذكر قرامطة الإحساء وقرامطة هجر في البحرين ، وثمة تشابه مع الإسماعيلية في الوقت نفسه .**

● نعم ، القرامطة مثل الكيسانية في بعض عقائدهم . فهم يعتقدون بأن هناك سرداباً في جبل سيظهر منه المهدي . ثم أمروا أن تكون الصلوات ثلاثاً لا خمساً ، وأن يتجه المصلي إلى القدس لا إلى مكة . فالقبلة هي القدس خلافاً للمسلمين . ويوم الصلاة ليس الجمعة بل السبت .

- **«خربطوا» النظام العام .**

● «خربطوا» النظام كله . وفي كتابي Syria Under Islam الذي

ينتهي بمجيء الفرنجة ، قلت هذا الأمر . أنا أعتقد أن الطوائف الشيعية الطابع أو ذات الأساس الشيعي ربما كان بعضها من القرامطة . مثلاً ما كانت عقيدة المتنبي؟ المتنبي كان شيعياً . عال ، أي نوع من الشيعة . منذ نحو ثلاث سنوات عُقد سيمينار عن ديوان المتنبي . أخذنا ديوان المتنبي وبحثنا فيه كلمة كلمة ، محاولين اكتشاف أي نوع من الشيعة هو ، وإلى أي فرقة من الشيعة كان ينتمي . ووجدنا أنه لم يكن منتمياً إلى الإسماعيلية أو إلى الاثني عشرية[1] .

---

(١) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي . ولد في الكوفة سنة ٣٠٣ هجرية ، ويعد أعظم شاعر عربي في جميع العصور . قتل بالقرب من دير العاقول على نهر دجلة في ٢٨ رمضان سنة ٣٥٤ هجرية (٢٧ أيلول ٩٦٥ ميلادية) . يقول عنه طه حسين في كتابه «مع المتنبي» إنه لقيط لم يعرف أباه أو أمه ، وإنه كان قرمطياً . أما محمود محمد شاكر فيعتقد أنه ابن لأحد كبار العلويين وربما كان جُعفياً ، أي من أتباع المفضل الجعفي (أنظر : محمود شاكر ، المقتطف ، كانون الثاني ١٩٣٦) . ويرى إبراهيم العريِّض ان الإمام المهدي إبان غيبته الصغرى تزوج امرأة من الكوفة أنجبت له المتنبي . ثم ماتت والدته فرعته جدته التي ماتت بدورها في سنة ٣٢٩ هجرية . وحاول أن يحصل على اعتراف بنسبه إلى الإمام محمد المهدي فحاربه العلويون ورفضوا الاعتراف بنسبه . وهكذا فعل عبد الغني الملاح الذي جعله ابناً للإمام محمد المهدي بن الحسن العسكري ، أي المهدي المنتظر (أنظر : عبد الغني الملاح ، المتنبي يسترد أباه ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠) . لكن أحمد الكاتب يقول إن الحسن العسكري كان عقيماً ، وبالتالي فإن الإمام المهدي لم يوجد قط بل هو اختراع (أنظر : أحمد الكاتب ، الإمام المهدي حقيقة تاريخية أم فرضية فلسفية؟ بيروت : الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٧) .

- ربما كان علوياً .

● يمكن أن يكون علوياً ، وممكن أن يكون كيسانياً .

- إذاً هو من الغلاة في الحالتين[1] .

● تماماً . إذا كان كيسانياً ، عند ذلك نستطيع أن نفهم لماذا حفظ له الدروز ديوانه أكثر من أي طائفة أخرى . لو تقرأ صالح بن يحيى الذي حفظ ديوان المتنبي . ثم تأتي إلى شخص آخر هو أبو العلاء المعرّي[2] ؛ أبو العلاء المعرّي لم يكن سنياً . ولكن ما كانت عقيدته؟

---

(١) من غلاة الشيعة المفضل بن عمر الجعفي صاحب كتاب «الهفت والأظلة» (بيروت : مكتبة الهلال ، ١٩٨١) ، وزعيم الفرقة المفضلية التي ظهرت في عهد الحسن العسكري (الإمام الحادي عشر للشيعة) . ومن الغلاة أيضاً الحافظ رجب البرسي صاحب كتاب «مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين» الذي يضفي صفات إلهية أو فوق نبوية على الإمام علي بن أبي طالب .

(٢) ولد المعري في معرة النعمان سنة ٩٧٣ ميلادية ، وفقد بصره وهو في الرابعة . درس في حلب وانطاكيا ، وعاش فترة في بغداد ، ثم عاد إلى المعرة وعاش معتزلاً العالم وزاهداً إلى أن توفي في سنة ١٠٥٧ ميلادية . من أشهر مؤلفاته «رسالة الغفران» (قصة متخيلة) ، و«سقط الزند» (شعر) و«اللزوميات» (فلسفة) . ومن شعره المشكك في العقائد ما يلي :

عجبت لكسرى وأشياعه   وغسلِ الوجوه ببول البقر

وقول النصارى إله يُضام   ويُظلم حياً ولا ينتصر

وقول اليهود إله يحب   رشاش الدماء وريح القتر

وقوم أتوا من أقاصي البلاد   لرمي الجمار ولثم الحجر

فوَا عجباً من مقالاتهم   أيعمى عن الحق كل البشر

لقد عاش في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة الدرزية ، وفي الوقت الذي كانت فيه الثورة القرمطية على قدم وساق . ربما كان هو أيضاً قرمطياً . ألم يقل «في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح» . كانت اللاذقية تحت حكم أسرة من بني فُصيص المسيحية . وكانت المجادلات شائعة في شأن المسيحية والإسلام وعلاقة المسيحيين بالروم ، حتى جاءت فرنسا وفصلت المسيحيين عن الروم ، وهذه من جملة فضائلها .

- أحدثوا انشقاقاً في المسيحية .

● نعم . قصارى القول إن الإنسان عندما يرى الحقيقة يحار ، ويبدأ في ترداد عبارات مثل «ربما» و«على الأرجح» . . . إلخ .

- حسناً ، بنو بحتر التنوخيون ألم يكونوا سنّة؟

● بنو بحتر كانوا دروزاً في زمن المتنبي . وليس بالضرورة أن يكون المتنبي درزياً ، ولكن احتمال أن يكون كيسانياً هو احتمال عال . جاء المتنبي إلى ما نسميه اليوم سوق الغرب ، وإلى المكان الذي تقع فيه مدرسة أبناء شهداء فلسطين التي دمرتها إسرائيل في حرب ١٩٨٢ . المكان يدعى البيرة . إذاً ، جاء إلى البيرة التي كان يقطنها آل بحتر ولم يذهب إلى «بير يجيك» قرب حلب كما يعتقد بعض

== ويقول أبو العلاء في مكان آخر :

إنما هذه المذاهبُ أسبابٌ   لجلب الدنيا إلى الرؤساءِ

أما الشك في النبوة والوحي فقديم ، فقد كان أبو سفيان يردد :

تلعبت هاشم بالملك فلا رسلٌ   جاءت ولا وحي نزلْ

لعبنا نحن في أيامنا   هكذا الأيام والدنيا دولْ

الدارسين[١] . فكيف يكون جد بني بحتر في حلب وابنه هنا في البيرة من دون أي علاقة بلبنان؟ إذاً ، جاء المتنبي وزار بحتر في سوق الغرب . يوسف الشيراوي صديقي كتب ذلك وذكر سوق الغرب لا البيرة . سوق الغرب غلط . الصحيح هو البيرة . وكان يجب إيضاح ذلك ، لكن يوسف الشيراوي كان في أواخر أيامه ، ومستعجلاً إنجاز كتابه «أطلس المتنبي» [٢] . الفكرة جميلة جداً . المهم أن المتنبي جاء إلى البيرة ومدح بحتر . يمكن أن يمدح قرمطي قرمطياً أو أي واحد من غلاة الشيعة ، أو يمدح واحداً آخر مثله . ولكن من المؤكد أن الأمر لا يعني أن سنّياً يمدح سنّياً . بعد فترة قصيرة ، أي نحو ١٠٠ سنة ، جاء الفرنجة ، فبعث أحد أحفاد بحتر للمتسلط على الشام رسالة قال فيها : أنا معك ، فما هو المقابل . فعيّنه أميراً ومنحه إقطاعاً . وهكذا بدأت قصة بني بحتر في لبنان . وفي حقبة الحروب الصليبية التي فتحت

(١) بعد خروج المتنبي من السجن في حمص سنة ٣٢٣ هجرية جراء اتهامه بادعاء النبوة ، توجه إلى اللاذقية واتصل بالتنوخيين . ثم توجه من اللاذقية إلى بعلبك في طريقه إلى البيرة عاصمة بني بحتر . لهذا يرى كمال الصليبي أن في البيت الشعري «ما مقامي في أرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود» غلطة ، ويجب ان توضع كلمة نحلة بدلاً من نخلة ، وهي قرية في بلاد بعلبك لا زالت عامرة حتى الآن .

(٢) يوسف الشيراوي بحريني درس الكيمياء في الجامعة الأميركية في بيروت ، ثم في جامعة غلاسكو في اسكتلندا ، وتدرج في المناصب الحكومية حتى رتبة وزير . أما كتاب «أطلس المتنبي» فقد صدر في بيروت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في سنة ٢٠٠٣ .

التجارة في البحر المتوسط على نطاق واسع ، انتعشت بيروت واغتنى عسكر بني بحتر فيها ، وأنشأوا قصوراً في بيروت والجبل ، ثم ورث أولاده وأولاد أولاده ما جمعه بحتر الذي اتفق مع المماليك أيضاً ، وخدمهم إلى أن زالت دولة المماليك ، وجاء بنو عثمان .

- **بهذا المعنى فإن لبنان ليس وطناً ملجأ على الإطلاق؟**

● لا بالتأكيد .

- **يقول بعض مؤرخي الموارنة إن الموارنة لجأوا من سوريا إلى لبنان [١] .**

● في الوقت نفسه يقول ابن جبير إن المسلمين المتدينين والمتصوفة كانوا يلجأون إلى جبل لبنان للانقطاع والتعبد . وكان سكان جبل

(١) ينتسب الموارنة إلى الكاهن يوحنا السرومي من دير مارون في سورية . وهذا الكاهن صار يدعى يوحنا مارون نسبة إلى الدير . وقد نشأت المجموعات المارونية الأولى في وادي العاصي بين حمص وحماه ، لكن لم يأتِ أي مؤرخ على ذكرهم قبل القرن التاسع الميلادي . وفي سنة ٦٨٥ ميلادية تبوأ يوستنيانوس عرش القسطنطينية ، فأرسل جيشاً إلى سورية خرب دير مارون وشتت رهبانه الذين لجأوا إلى جبل لبنان ، وكان على رأسهم يوحنا مارون السرومي الذي صار أول بطاركة الموارنة ، وتوفي في كفرحي من أعمال البترون سنة ٧٠٧ ميلادية . وكان رهبان دير مارون من أنصار المشيئة الواحدة للمسيح ، أي أن للمسيح طبيعتين ، لكن له مشيئة واحدة . وظلوا على هذه العقيدة اليعقوبية حى أواخر القرن السادس عشر حين تحولوا إلى الكاثوليكية . أما مار مارون فهو مجرد ناسك انعزل في منطقة تقع بين القورشية وحلب بعدما عثر على معبد وثني للإله نابو ، فحوّله إلى كنيسة وعاش فيها إلى أن مات ، فدفن بالقرب من كنيسته . والمكان اليوم يدعى قرية كفر نابو .

لبنان النصارى يسارعون إلى تقديم الخدمات لهم . والعجيب أن ابن جبير يقول عن هذا الشعب كم هو لطيف وكم هو ناعم وكم يحب الناس التي تحب الله . ويتساءل : إذا كانت معاملتهم للغرباء على هذا النحو فكيف تكون معاملتهم في ما بينهم؟

- لم يكتشف الحقيقة . في أي حال دعني أستطرد بهذا السؤال : أنت تتحدث عن اللبنانيين بوصفهم شعباً يعيش في وطن كقبائل متذابحة (هذا التعبير لي في أي حال) . والقبيلة في لبنان تحولت إلى طائفة بحسب رأيك . أرجو أن تفصل هذا الكلام؟

● ما الفرق بين القبيلة والطائفة؟ هل إذا كان الإنسان مارونياً أو درزياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانتياً أو سنّياً أو شيعياً يقضي النهار والليل بالضرورة وهو يفكر في أموره الدينية والفقهية؟

- أكيد لا .

● إذا كان يقضي الليل بالفعل على هذا المنوال فيلزمه مارستان ، لأنه مخالف لطبائع البشر . فالدين لتسهيل الأمور وليس لتصعيبها ، ولحل الأمور وليس لتعقيدها . إذاً ، ما الذي يجعل الإنسان ينتمي إلى طائفة؟ إن الذي يجعل الإنسان ينتمي إلى طائفة هو العرف العام . فالإنسان يُخلق في طائفة محددة ، فيتعلم أعرافها وعاداتها . وإذا كانت هذه الطائفة تعيش إلى جانب طائفة أخرى ، فهما تتبادلان بعض العادات ، وتأخذ الواحدة عادات الطائفة الأخرى . يقولون مثلاً إن المسيحيين الذين يعيشون مع الدروز في الشوف ليسوا مسيحيين ، بل دروزاً . لماذا؟ لأن هناك في تصرفهم الاجتماعي ما يشبه تصرفات الدروز ، وهناك في تصرفات الدروز ما يشبه تصرفات المسيحيين . ومع أن بعضهم يذبح بعضهم فهم يحبون بعضهم بعضاً . نأتي الآن إلى

رأس بيروت ، فأهل رأس بيروت لا يقضون نهارهم وليلهم في المدائح . وقت المدائح مدائح ووقت اللهو لهو . وعلى مدى الزمن توافقوا على أن هناك قضايا مستحبة مثل الأغاني التي يحبونها معاً ، ومثل المآكل أيضاً . والمرأة عندما تروِّب اللبن فهي لا تخجل من أن تستعير الروب من جارتها بغض النظر إن كانت هذه الجارة مسيحية أو مسلمة .

- ونساء المسلمين يرضعن أبناء المسيحيين وبالعكس .

● صحيح . وهذا ما يؤسس تعايشاً متمدناً ، وإذا لم تحدث مثل تلك الأمور تقع البغضاء . والبغضاء تقوى إذا وفد أناس من الخارج وراحوا يحشون الرؤوس بكلام تعصبي مثل القول : أنت مسيحي وهذا مسلم . . . لا تأمنوا إلاّ لأهل دينكم ، وهنا يبدأ الشك . «خرمشهم» قليلاً تر متى تظهر عصبية المسلم فيهم ، و«خرمشهم» قليلاً ترى متى تظهر عصبية المسيحي فيهم ، مثلما حدث في إحدى المرات لزوجة الدكتور مصطفى الخالدي مؤسس مستشفى الخالدي[1] . فقد كانت زوجته سيدة جميلة ومحترمة ومحبوبة في وسط المجتمع البروتستانتي في رأس بيروت ومنسجمة معه تماماً ، وتعلمت كيف تصنع الـ cake وشرب الشاي بعد الظهر . وفي إحدى المرات كانت النسوة مجتمعات عند أسمى خياط زوجة الدكتور جورج خياط . وكانت جميع النساء

---

(١) مصطفى الخالدي طبيب سوري ، أصله من حمص . ولد في بيروت سنة ١٨٩٥ ، ونال شهادة في الطب سنة ١٩٢٠ ، ثم أسس في بيروت مستشفى للولادة سنة ١٩٥٢ ، وكان ناشطاً في القضايا الإسلامية . كتب مع عمر فروخ كتاباً مشهوراً عنوانه «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٥٣) ، وتوفي في سنة ١٩٧٧ .

مسيحيات ما عدا مدام الخالدي . وراحت السيدة خياط تروي قصة سيدة مسلمة أساءت التصرف الاجتماعي في مناسبة معينة ، واستنتجت أن هذه السيدة المسلمة لم تتعلم حسن السلوك الاجتماعي لأنها لم تعايش المسيحيين . وأضافت : إن المسلمين ، مع أنهم يسافرون كثيراً ، إلا أن تغيرهم لا يتجاوز ثيابهم ويبقون على بغضهم لنا ، وهم يظلون «إسلاماً» مهما فعلوا . وهنا انتبهت مدام خياط إلى أن زوجة مصطفى الخالدي مسلمة ، فتراجعت في اللحظة الأخيرة واستدركت ما قالته بكلام لائق . إن قصة مدام الخالدي هي ملحمة لبنان ، لأن الأمور هكذا تحدث أحياناً .

- شاهدنا كثيراً من الحوادث عن اندفاع الناس إلى بذل الدم للدفاع عن الطائفة ، ويكون المندفع ، في العادة ، غير متدين ، بل إن سلوكه يكون في معظم الأحيان ، مخالفاً لأوامر الدين . لكن عصبية الدم والانتماء إلى جماعة يجعلانه أعمى البصيرة .

● الانتماء إلى جماعة أكبر يعلمه حُب البعيد وليس حب القريب . حب البعيد يعني أنك عندما ترى ولداً «مخطته» تسيل من أنفه لا تقل إنه ولد قذر ، بل قُل : «يا حرام هذا الولد» .

- الأحوال القاهرة ربما جعلته هكذا .

● وقُل «يا حرام هالولد ، شو مهضوم» . . . كل ما عليك أن تفعله هو مسح «مخطته» ويصبح «مهضوماً» . ففي إمكان المرء أن يعلّم نفسه حسن السلوك ويقوم بذلك بسهولة كبيرة جداً .

- كما ذكرت ، الطفل يولد في طائفة ، وأهله يعلمونه منذ صغره العادات والتقاليد وربما عدم التسامح والكراهية أيضاً ، لأن عدم التسامح والكراهية موجودان في الديانات جميعاً . وأود أن

أختم سؤالي بطرفة عن أحد اللبنانيين المسلمين المهاجرين إلى إحدى الدول الإسكندنافية ، والذي نشأ على التزمت الديني . وكان كلما اشترى الخضروات يذهب فيغسلها سبع مرات تحت مياة جارية . لماذا؟ لأن شيخه علمه ألا يشتري طعامه من غير المسلمين ، وإذا اشتراها من مسيحي فعليه أن يغسلها سبع مرات لتطهيرها . والأمر نفسه في شراء اللحمة ، فهو يبحث على بعد عشرات الكيلومترات عن ملحمة يكون صاحبها مسلماً ليشتري منه اللحمة ؛ لأن اللحم الحلال هو الذي يتم التكبير عليه عند الذبح . المهم ، أن أحد الأصدقاء قال لهذا المهاجر المتزمت : طيب ، عندما تقبض النقود من صندوق المعونة الاجتماعية هل تغسلها سبع مرات؟ أليست هي نقوداً للمسيحيين وأنت بنفسك تسلمتها من أيد مسيحية؟ مع الأسف ، فإن المشايخ هم الذين يخلقون ثقافة الكراهية هذه .

● الحق معك . المشايخ والكهنة ، ويوجد كهنة في جميع الطوائف وهم المسؤولون عن هذه الروح . وهذا باب رزقهم . التعصب هو باب رزق الكهنة ، وهؤلاء يريدون الحفاظ على مورد رزقهم . وللحفاظ عليه لا يتورعون عن بث البغضاء والكراهية والتعصب ، وهذه أعمال إجرامية تماماً .

فخر الدين المعني اختراع لبناني

- تقول أن لا وجود لفخر الدين الأول . من اخترعهُ؟ ولماذا جرى اختراعه؟

● خلال القرن التاسع عشر بدأت المعلومات عن أوروبا تنتشر في هذه البلاد . ومن جملة الأحداث أن شخصاً يدعى أرنست رينان جاء إلى هذه المنطقة وسكن في قرية معاد في بلاد جبيل وراح يعمل في الحفريات الآثارية ، ويكتب عن فينيقيا . وكان معه شخص درس في عين ورقة اسمه طنوس الشدياق ، وهو شقيق فارس الشدياق[1] . وفي

---

(١) ولد طنوس الشدياق في حارة الحدث في أوائل القرن التاسع عشر ، وتوفي في سنة ١٨٦١ . نشر كتاباً عنوانه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» سنة ١٨٩٥ ، وهو الشقيق الأكبر لأحمد فارس الشدياق . وفارس الشدياق المولود في عشقوت سنة ١٨٠٤ ، درس في عين ورقة مع ابن خالته بولس مسعد الذي صار بطريركاً للموارنة في سنة ١٨٥٤ . وعندما غيّر شقيقه أسعد مذهبه من المارونية إلى البروتستانتية سجنه البطريرك في دير قنوبين وتوفي في سنة ١٨٣٠ . وكانت هذه الحادثة سبباً لانقلاب فارس الشدياق على كنيسته ، فاتهم البطريرك بتعذيب شقيقه ، واعتنق بدوره البروتستانتية ، وغادر إلى مصر ثم إلى لندن في سنة ١٨٤٨ حيث ساعد الدكتور صموئيل لي في ترجمة التوراة إلى العربية ، وبعد ذلك جاء إلى تونس سنة ١٨٥٧ ، وفيها اعتنق الإسلام وتسمى باسم أحمد . توفي في ١٨٨٧/٩/٢٠ ، ومن أشهر مؤلفاته : «الساق على الساق في ما هو الترياق» .

كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» لا يذكر لبنان بل يذكر فينيقيا . وهؤلاء اللبنانيون ، من خلال اتصالهم بالأوروبيين ، صاروا يعرفون أن في إنكلترا وفرنسا مثلاً لوردات ، وأن توارث الألقاب والسلطات ينتقل من الجد إلى الأب الأكبر إلى الابن بحسب قوانين معينة ، وينطبق الأمر نفسه على ملوكهم وأمرائهم . واستساغ بعض المؤرخين اللبنانيين هذه الفكرة وطبقوها على لبنان . وكان هناك شخص اسمه فخر الدين ، وفخر الدين هذا كان ملتزماً جباية الضرائب في سنجقي بيروت وصيدا . وبعد ذلك التزم الجباية في بيروت وصيدا وصفد ، ثم في بيروت وصيدا وصفد وعجلون . . . إلخ . أي أن الدولة العثمانية كانت توسع له نطاق التزامه . وعندما كبر رأسه قام بالعصيان ، فاعتقلته السلطات وساقته إلى الأستانة فحوكم وأعدم . هذه هي قصة فخر الدين . وفخر الدين كان ، في الوقت نفسه ، شخصاً ذكياً جداً . فعندما سافر إلى إيطاليا وأقام فيها خمس سنوات . . .

- في توسكانا .

● صحيح . وقد سجل رحلته . ويمكن أن يكون أحد رجال حاشيته هو من كتب تفصيلات هذه الرحلة . وهي رحلة تعد أجمل من أي رحلة غربية إلى الشرق[1] . وفي النتيجة استفاد من رحلته

(١) نشرت رحلة فخر الدين إلى توسكانا ، أول مرة ، في مجلة «الجامعة المصرية» سنة ١٩٢٤ . ثم نشر عيسى اسكندر المعلوف مقتطفات منها في كتابه «تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني» سنة ١٩٣٤ . وصدر النص كاملاً في سنة ٢٠٠٧ عن دار السويدي للنشر في أبو ظبي وعن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، وحققه قاسم وهب .

فنظم طرقاً لتربية المواشي ولتطوير الزراعة والعمارة . وجاء بالطليان ودفع لهم الأموال لينشئوا له ، في جملة ما أنشأوا ، حديقة حيوانات . وكان موقعها في مكان Virgin Mega Store اليوم في قلب بيروت .

- كان اسم المبنى قبل الحرب «سينما أوبرا» .

● صحيح . وهذه شهادة لفخر الدين . لكنه كشخصية تاريخية لم يكن أكثر من سنجقدار .

- سنجقدار أم تحصيل دار؟

● كانوا يسمونه الملتزم . أو سنجق بيك التي تترجم إلى العربية أمير اللواء . ولهذا السبب صاروا يسمونه أميراً أي الذي يأمر .

- هل يتطابق اللقب مع كلمة أميرالاي الشائعة في مصر .

● أميرالاي تعني قائد لواء ، وفخر الدين كان أمير لواء بيروت وصيدا ثم زيد عليها صفد وعجلون .

- لا علاقة له بالشوف؟

● لا . الشوف يتبع لواء بيروت وصيدا . هذا من جهة الدولة . أما من جهة العامة فكلمة «مير» ، أي مير اللواء ، فقد درجت على لسان العامة وصاروا يقولون عنه «الأمير» . ثم جاء طنوس الشدياق وآخرون مثله ومنهم حيدر الشهابي[1] ، وكتبوا تاريخ لبنان على أساس أنه إمارة .

- كتاريخ أوروبا .

● بل مثل إمارة مونت كارلو . وكتب هؤلاء المؤرخون أن فخر الدين حين مات اجتمع الناس في سهل السمقانية وعقدوا الولاية . . . إلخ .

(١) ولد في دير القمر سنة ١٧٦١ وتوفي في دير القرقفة سنة ١٨٣٥ . من مؤلفاته : «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان» .

والحقيقة أنهم لم يجتمعوا في السمقانية ولا من يحزنون . هم اجتمعوا في السمقانية ليروا ما هي الضرائب التي ستُدفع عنه .

أما فخر الدين الثاني فهو مجرد تسمية أطلقت حين زوّر المؤرخون هذا التاريخ وجعلوه تاريخاً لدولة بيت معن . والحقيقة أن لا فخر الدين ولا أمراء في هذه البلاد ، بل مقدمون . وعندما كان أحد المقدمين يعصي الدولة ، أو لا يقوم بواجباته ، تنحيه الدولة وتأتي بمقدم آخر . وكانت تحصر اختيارها بعائلة أو بعائلتين أو بثلاث عائلات .

- أي العائلات ذات الشوكة .

● هذه الوقائع حللتها ، مع أن الوثائق لم تكن متوافرة . وفي الوقت الحاضر قام عبد الرحيم أبو حسين بدراسة اللغة التركية والتاريخ العثماني ، وللمرة الأولى قرأ «مهمة دفتري» ونشر الوثائق المتعلقة بهذا الحدث . لكن لا أحد يقرأ ليصحح تاريخ لبنان المزور . أرأيت كيف أن هذا الأمر توصلت إليه بتحليل الوقائع ، وأنا من الذين يتّكلون على حدسهم . إذاً لم أجد الأمير فخر الدين الأول .

- يفترض أن يكون والده يدعى قرقماز .

● ولم أجد قرقماز أيضاً ، بل وجدت شخصاً آخر هو سويروس . ووجدت فخر الدين عثمان الذي بنى جامع دير القمر ، والذي لا يمكن أن يكون له علاقة بفخر الدين الثاني لأن سلالته معروفة .[1] ثم إن

(١) بنى فخر الدين عثمان مسجد دير القمر في سنة ١٤٩٤ . وفخر الدين عثمان هذا كان مقدماً في الشوف في أواخر عهد المماليك . ويقول علي الزين في كتابه «للبحث عن تاريخنا في لبنان» (بيروت : دار الفكر الحديث ، ٢٠٠٦) إن فخر الدين عثمان بن معن توفي في سنة ٩١٢ هجرية (١٥١٦ ميلادية) ، أي قبل الفتح العثماني بعشر سنوات .

فخر الدين عثمان هذا جاء في آخر العصر الذي كان الاسم واللقب ما يزالان شائعين في الأسماء . فالاسم هو عثمان ، واللقب هو فخر الدين . إذاً ، هذا الشخص اسمه عثمان وفخر الدين لقبه . كنت أتساءل دائماً : لماذا الملك الناصر السلطان صلاح الدين ابن أيوب . ماذا تعني بالملك الناصر؟ وما علاقة ذلك بالسلطان؟ هل كان ملكاً وسلطاناً؟ وتوصلت إلى أن كلمة الملك هنا هي لقب وليست تسمية . والناصر صفة أخرى تعني المنتصر . وصلاح الدين لقب ديني . أما اسمه فهو يوسف . وبين الأسماء والألقاب في بلادنا لا يوجد فخر الدين الأول ولا الثاني بطبيعة الحال . هناك فخر الدين فقط . وفخر الدين هذا عندما كتب عنه أحمد بن محمد الخالدي الصفدي[1] لم

(١) أنظر : أحمد الخالدي الصفدي ، لبنان في عهد الأمير فخر الدين (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٩) . وهذا الكتاب مشكوك في نسبته إلى الخالدي الصفدي . أما عن قصة فخر الدين وموته فقد تزايدت شكوك العثمانيين في ولائه وتواطئه مع علي باشا جانبولاد (جد آل جنبلاط) الذي كان قد ثار ضد العثمانيين في سنة ١٦٠٧ ، فأرسلت إليه الدولة العثمانية حملة بقيادة الكجك أحمد الحافظ والي دمشق سنة ١٦١٣ ، فجزع واصطكت ركبتاه وهرب إلى توسكانا . وبعد نفي دام خمس سنوات عفت عنه الدولة العثمانية فعاد في سنة ١٦١٨ . لكنه لم يلبث أن عاود اتصالاته بروما وتوسكانا فجردت الدولة حملة ضده في سنة ١٦٣٤ ، فهزم فيها ، وقبض عليه ، وسيق إلى الأستانة حيث أعدم مع أولاده الثلاثة . أما عن «مآثره «المزورة» مثل معركة عنجر فيقول عنها المؤرخ علي الزين في كتابه «للبحث عن تاريخنا في لبنان» (بيروت : دار الفكر الحديث ، ١٩٧٣) إنها معركة يصورها مزيفو التاريخ أنها معركة قومية ضد والي الشام وجيشه ، وهي ليست إلا ==

يسمّه فخر الدين الثاني . إن من أسماه فخر الدين الثاني هو مَن نشر كتاب الصفدي أي فؤاد افرام البستاني وأسد رستم . وهذان أسمياه فخر الدين الثاني . ولكن عندما تقرأ التواريخ لا تجد اسم فخر الدين الثاني ، بل تجد أن هذا الرجل كان جابياً للضرائب . وتاريخه كله عبارة عن أعمال تحتاج محاسباً . وجميع أعماله الرسمية مقصورة على جمع «المصاري» للدولة العثمانية والإبقاء على قسم من هذه الأموال في جيبه . وعندما مات قتل جميع أبنائه . والابن الصغير تربى . . .

– عند الموارنة .

● مهلك . لم يتربّ أحد عند الموارنة . هذه حكاية اخترعها آل الخازن حتى يكبّروا أنفسهم . فقالوا إن ابنه الأصغر ربّاه الحاج كيوان .

== معركة أهلية بين المعنيين وحلفائهم الشهابيين ، وبين الحرافشة وحلفائهم آل سيفا .

ويقول جورج هارون : «إن أسطورة فخر الدين لجأ إليها القوميون اللبنانيون عندما كان لبنان الكبير ضماناً للوجود المسيحي السياسي في الشرق الأوسط» (أنظر : جورج هارون ، هل توحد لبنان مع فخر الدين المعني الثاني؟» ، سلسلة «دراسات القضية اللبنانية» ، رقم ١٩ ، ١٩٧٧) . وعندما التقى أحمد سامح الخالدي كمال الصليبي في سنة ١٩٤١ قال له : عندما يأتي اليوم الذي تكتب فيه التاريخ لا تكذب كما يفعل المؤرخون اللبنانيون عادة . أكتب الحقيقة ، وقل ، مثلاً ، إن فخر الدين كان عاصياً على الدولة العثمانية ، ونال عقابه عندما قبض عليه . . . ولا تقل إنه كان بطلاً يقاوم الظلم العثماني» (أنظر : كمال الصليبي ، طائر على سنديانة ، عمان : دار الشروق ، ٢٠٠٢) .

والحاج كيوان كان «أزعر» ونشّالاً[1] . كان من الانكشارية المحلية (يارلية) . وهؤلاء كانوا ما بين العسكر والزعران . وفي الحالات التي لم يكن العثمانيون قادرين على ضبط الأوضاع يلجأون إلى تسييبهم ، ويقولون لهم اجمعوا ما تستطيعون من الأموال ، لكن عليكم تهدئة الوضع وضبط الأمن . وكان العثمانيون أنفسهم يشتكون منهم ، وكثيراً ما كانوا يقتلونهم جراء ظلمهم الناس . وأخيراً عندما جاء حاكم قوي إلى بشامون قتل الحاج كيوان . ويزعم مزورو التاريخ أن الحاج كيوان هرّب فخر الدين وهو طفل مع أخيه يونس ليخبئهم لدى آل الخازن من أصحابه الموارنة ، وأن آل الخازن ما زالوا يحفظون قصصاً كثيرة عنه وعن أخيه يونس عندما كانا صغيرين . هذا كله «تجليط» . هل رأيت وقاحة في تزوير التاريخ أكثر من هذه الوقاحة؟ منذ سنة ١٩٥٣ وأنا أكتب في التاريخ . ولم أكتب لأخبىء نتائج أبحاثي ، بل نشرت ذلك كله ، وألقيت محاضرات كثيرة . فهل أثّرت كتاباتي في إعادة النظر في تاريخ لبنان المزوّر؟ لم تؤثر .

– لا زال يعاد تدريس تاريخ لبنان المزور .

● جربت نشر المعرفة وأخفقت .

– لأن العقول مقفلة .

● لأن لا حياة لمن تنادي . والطريف أنهم ألفوا قصصاً عن فخر الدين الصغير وعن أخيه يونس حين كانا يلعبان في منازل آل الخازن ،

(١) هو كيوان بن عبد الله بن نعمة بن ضو من دير القمر ، وأصل عائلته من بلدة حاقل في جبيل . ولد في سنة ١٥٤٠ وتوفي في سنة ١٦٢٠ ، وخلفه في منصبه أبو نادر الخازن . ويروي الخالدي الصفدي أن فخر الدين قتله بيده وبالسكين .

وبيت الخازن ما زالوا يحفظونها ويرددونها حتى الآن ، وهي كلها حكايات موضوعة .

- **فؤاد افرام البستاني كان يدرّس التاريخ كحكايات خرافية .**

● في بداياته كان مختلفاً . فؤاد افرام البستاني كتب روائع . لكنه مع مرور الوقت ، تغيرت فلسفته . المسيحيون هم أرباب الأدب العربي . جميع الشعراء الكبار في الجاهلية هم نصارى ، وحتى في العصور الإسلامية . مثلاً ، أبو تمام كان مسيحياً .

- **والأخطل .**

● الأخطل كان مسيحياً . وقِسْ على ذلك حتى القرن التاسع ميلادي[1] . وكان الخط هو فلسفة الدولة (الخط الهمايوني) . لذلك شدد نصارى لبنان على التراث العربي وارتبطوا به . لكن عندما اختلفوا مع المسلمين ارتدوا عن تراثهم بطريقة قبيحة وتنكروا لكل ما هو عربي . أنا عندما كنت في صف الفرشمان درست الروائع . والروائع فعلاً روائع . لكنني في نهاية المطاف لم يرق لي فؤاد افرام البستاني في برامجه التلفزيونية ، وكيف يروي تاريخ لبنان وتاريخ فخر الدين . وعندما كتبت عن فخر الدين اعتمدت على تحليل الوقائع ، فأصبت . أما اليوم فإن عبد الرحيم أبو حسين يؤكد استنتاجاتي . يقولون إن أباه

---

(١) من الشعراء المسيحيين العرب عدي بن زيد وعمرو بن كلثوم والأعشى الأكبر (ميمون بن قيس) وأمية بن أبي الصلت وعثمان بن الحويرث والحارث بن كلدة وأكثم بن صيفي وقس بن ساعدة وهند بنت النعمان وميسون بنت بحدل الكلبية والزبرقان بن بدر وعدي بن حاتم الطائي والنجاشي الحارثي وابن البطريق وغيرهم كثيرون .

«سلطان البر» ، أو جده سلطان البر . هذه نكتة سخيفة .

- **أمير عربستان .**

● عربستان تعني سوريا ، نفير سوريا بحسب بطرس البستاني الذي يقول : «بلدنا ومشربنا هي سوريا المعروفة ببلاد الشام وعربستان ، جميعنا نتنشق هواها ونشرب مياهها ونأكل خيراتها» . أما فخر الدين فقد حمّلونا إيّاه . وأنا في كتابي «بيت بمنازل كثيرة» قلت إن الدروز ، الذين هم أصحاب فخر الدين ، يعرفون حقيقته .

- **لماذا لا يقولون الحقيقة إذاً؟**

● لا يسمونه أمير البلاد . فخر الدين كان زعيماً محلياً وتسلم مركزه في زمن العثمانيين ، وكان هناك مَن هم ضده ، وآخرون وضعهم في السجن . وهؤلاء ساهموا في تسليمه إلى العثمانيين[1] . وبعد الاستقلال قامت المؤسسة اللبنانية المسيحية بصنع تمثال له ، ونصبته في بعقلين ، فنسفه الدروز سنة ١٩٨٣ .

- **كان وليد جنبلاط يعتبره عميلاً للغرب .**

● أنا أفهم هذه العقلية لأنني عشت بينهم . إن فخر الدين المزوّر الذي نسفوا تمثاله في بعقلين ما زالت صورته معلقة كزعيم درزي . هم أصحاب القضية يعرفون الحقيقة لكنهم لم يكتبوا تاريخاً . والمشكلة أن بقية الطوائف ما عدا الموارنة (أو المسيحيين عموماً) لم تكتب التاريخ . فصارت الحال كما يقول المثل : «مثل ما بتطبخ الطرما بياكل جوزها

---

(١) لم يكن المعنيون عائلة تتوارث السلطة ، بل مجرد عائلة متغلبة في منطقتها يلتزم زعيمها جباية الضرائب من الناس القاطنين في نطاق التزامه الذي كان يتوسع كلما أثبت جدارته وولاءه .

الأعمى[1]» . ثم جاء طنوس الشدياق وصاروا مثلما يطبخ يأكلون . يقول أنتم أصلكم من اليمن فيجيبون نعم أصلنا من اليمن ؛ أنتم أصلكم ليس من اليمن ، نعم أصلنا ليس من اليمن ؛ أنتم أصلكم من حوران ، نعم نحن من حوران ؛ أنتم أصلكم غساسنة ، نعم نحن أصلنا غساسنة . . . إلخ .

– تقوم النظرية العامة للمؤرخ جواد بولس على أن سلسلة لبنان الشرقية هي فاصل قومي بين لبنان وسورية . كيف تنقد هذه النظرية[2] ؟

● أين هو هذا الفاصل الاثني؟ حتى اليوم لا توجد منطقة صافية للموارنة . البترون وجبيل فيها مجموعات سنّية .

– وشيعة في جبيل حتى اليوم .

● شيعة في جبيل وكسروان أيضاً . وهناك ما تبقى من الأيوبيين في راس نحاش وقلعة المسيلحة في المنطقة التي يسمونها القويطع . في راس نحاش يسمون آل الأيوبي الأمراء الأكراد . وهؤلاء استرجعوا الاسم بناء على التاريخ ، وكانوا نَسُوا هذا اللقب منذ فترة طويلة . لهذا

---

(١) الطرما تعني ثقيلة السمع أو الطرشاء .

(٢) مؤرخ لبناني ، ولد في زغرتا سنة ١٨٩٩ . تخرج في معهد الحقوق الفرنسي في بيروت سنة ١٩٢٢ ، وانتخب نقيباً للمحامين في سنتي ١٩٣٢ و١٩٣٨ . أصبح نائباً في سنة ١٩٣٧ بالتعيين ، ولم يتمكن من العودة إلى البرلمان في أي دورة انتخابية لاحقة . شارك في سنة ١٩٧٦ في تأسيس «الجبهة اللبنانية» مع كميل شمعون وسليمان فرنجية وبيار الجميل وادوار حنين وفؤاد أفرام البستاني وشارل مالك والأباتي شربل قسيس . توفي في ١٩٨٢/٩/١٧ .

يسمونهم «الأمراء الفقراء» أو الأمراء الأكراد . وحين تحسنت أحوالهم بعد انخراطهم في الجيش وفي وظائف الدولة جاء من يقول لهم : أنتم آخر الأيوبيين ، وفعلاً هم آخر بني أيوب .

– أنت تسخر من اللبنانيين في كثير من الحالات ، فتقول إنهم كذّابون ، منافقون ويدّعون العكس ، ويشتغلون عند بعضهم بعضاً ويُحِبّون الأشياء نفسها ، ويكرهون الأشياء نفسها ، ويشتركون في صغر العقل بشكل مثالي . حتى لعب الورق في الجبل اللبناني يصبح للنكايات و«التزريك» (أي للشماتة) وليس للتمتع[1] . وتنقل عن البطريرك بولس المعوشي قوله إن الموارنة شعب مخّه يابس مثل صخور هذا الجبل[2] . هل يختلف الموارنة في هذا الشأن عن بقية

---

(٨١) أنظر المقابلة التي أجراها محمد نور الدين مع كمال الصليبي في جريدة «السفير» ، ٢٠٠٧/٨/٣ .

(٨٢) يروي أنيس فريحة في كتابه «القرية اللبنانية حضارة في طريق الزوال» (ص ٣٦١) أن قروياً لبنانياً فقيراً أشعل النار في اللحاف الوحيد الذي كان يملكه ويغطي به أبناءه الصغار ليلاً ابتهاجاً بفوز أحد أعضاء حزبه بالنيابة . وعندما سُئل : هل يعرف النائب الجديد؟ قال : لا ، ولكن نكاية بجاري . ومن مظاهر النفاق الجبلي الواقعة التالية : عندما أعلن المؤتمر السوري العام في ١٩٢٠/٣/٧ الأمير فيصل الأول ملكاً دستورياً على سورية ذهب وفد من جبل لبنان إلى دمشق للتهنئة وكانت فرنسا ضد فيصل ، وكان بين أفراد الوفد زجال بارع . وعندما وصل الوفد إلى مقر الملك فيصل بادره الزجال بالقول :

بواريدنا بتردها   وبصدورنا منصدها
فيصل أمير بلادنا   باريس تلزم حدها

سكان الجبل في لبنان ، وعن بقية سكان الجبال في بلاد الشام؟

● الموارنة أصدق من غيرهم . أحياناً يرون الحقيقة على حالها ولا يخشون من قولها . عندما قال لي بطريرك الموارنة هذا الكلام ، وأنا لست مارونياً ، وهو يعرف ذلك ، فهذا أمر يُحترم . وحتى عندما يكذبون يقولون : هذه كذبة . الوعي لديهم متطور أكثر من سواهم ، ولديهم ثقة بأنفسهم لأنهم ظلوا مدة طويلة يتخذون قراراتهم بأنفسهم ، وحقبة طويلة أيضاً كانوا يتخذون القرارات بالنيابة عن غيرهم . أخطأوا أحياناً ، وزادوها أحياناً أخرى ، و«خبّصوا» ، ولم تكن نهايتهم كبدايتهم ، هذا كله صحيح . ولكن لا مأخذ عليهم إذا قالوا إننا شعب مخّه يابس ، وإن تاريخنا قرون من معاندة الصخر . والبطريرك المعوشي كان شخصاً ليس كالناس العاديين ، كان رجلاً عظيماً . أما عن لعب الورق الذي يتحول إلى «تزريك» في الجبل ، فأقول : أنا أحب البريدج . فإذا خسرت لا أزعل . وإذا ربحت لا أهلل . المهم هو لعب الورق وطريقة اللعب والشطارة . كنت أفرح عندما يظهر مني بعض الشطارة ، ولا أزعل إذا ظهرت مني قلة شطارة . وإذا «زرّك» لي أحدهم لا أزعل . ربما هذه طباع . وطول حياتي لم أُنافس أحداً ولم أتقدّم لجائزة . وهذه

== ولما اجتاح الجنرال غورو دمشق بعد معركة ميسلون في تموز ١٩٢٠ ، وغادرها الملك فيصل ، ذهب وفد من جبل لبنان إلى دمشق لتهنئة الحكومة الجديدة الموالية للفرنسيين ، وكان في عداد الوفد أشخاص من الوفد القديم بينهم الزجال نفسه .

وعند وصول الوفد إلى دمشق راح الزجال ينشد :

يا مير وش لك والحروب   باريس منك قدها

هيدي دول بدها دول   راعي غنم ما يردها

الأمور أبتعد عنها ولا أحبها .

في الانتخابات النيابية الأولى سنة ١٩٤٣ كانت جماعة الشيخ بشارة الخوري تهزج بالقول : «فتح يا ورد الجوري عاوِج بشارة الخوري . . . عاوِج بشارة ورياض وكل مين صوّت دستوري» . هذه ليست سياسة ، لكنها دعاية قليلة الحياء ، ولا احترام فيها . أنا لم أشارك في تلك الانتخابات ، لكنهم كانوا يغنون هذه «الردة» أمامي ويتبارون فيها ويضحكون .

– هذا جزء من الأخلاق العامة .

● نعم ، جزء من الأخلاق العامة . وأمر يغرم به أصحابه ، لكنني لا أفرح به ولا أستسيغه . ربما الغلط فيّ . وربما هذا الطراز من الحياة السياسية في لبنان جيد ، وأن هذه هي بالضبط الديمقراطية . لكنني لا أحب الديمقراطية . وأشكر الله أن ليس لدي سلطان ، ولا أريد أن أفرض الديمقراطية .

– لا ديمقراطية ولا استبداد .

● لا ديمقراطية ولا استبداد ولا أي شيء آخر . أنا مؤرّخ ، وأحلم بالأشياء التي لم تحدث ، ولكنني أتخيل ما هو الأفضل للمجتمع ، وأفرح إذا فكّرت بشيء جيد للمجتمع . وأحياناً إخال أن هذا الأمر جيد للمجتمع وإذ به يتحول إلى أمر قبيح .

– إذا كان الموارنة على هذا النحو كما تقول ، فإنهم لا يختلفون عن باقي أهل الجبل كالدروز مثلاً .

● لا يختلفون على الإطلاق . لكنهم «قابضينها جد» أكثر ، ويتحملون أكثر . فإذا قلت للموارنة : «أنتم تحبون النكايات» تجدهم يضحكون ولا يفلسفون الأمور .

– هذا ما كان في الماضي . هل ما زال أهل الجبل على هذا المنوال أم تغيرت الأحوال؟

● بما أن لبنان صار مقسّماً إلى حد ما ، فإن الإنسان الذي يسكن هنا لا يرى الناس الذين يسكنون هناك كما كان يراهم من قبل . لهذا لا أستطيع الحكم . ولكن من خلال الجرائد أرى أن الأحوال لم تتغير .

– مع أن الموارنة ما عادوا أبناء جبل ، بل صاروا مدينيين .

● أعتقد أن الموارنة ظلمتهم الطوائف المسيحية والطوائف غير المسيحية ، لأنهم نالوا حصة الأسد من النظام السياسي اللبناني . لكن لو لم يكن لهم حصة الأسد لما كان هناك لبنان في سنة ١٩٢٠ . وعندما كانوا حكّاماً لم يَظلموا . وعندما ظَلموا كانوا على معرفة بأنهم يظلمون . فقد كان لديهم نضج سياسي غير موجود لدى غيرهم . أما باقي أهالي البلد ، وبما أنهم لم يكونوا ضمن شراكة كاملة في مؤسسات الدولة ، ولم ينالوا غير الفتات الذي كان يتبقى على طاولة الموارنة ، فدأبوا على إحصاء الأخطاء على الموارنة .

– كأنك تقول إن هناك تضخيماً في الكلام على أن الموارنة لم يمارسوا حكماً سليماً .

● هناك تضخيم كبير ، وهناك حقيقة في الكلام على الأغلاط أيضاً . لكن التضخيم يوازي الحقيقة إن لم يكن أكبر منها . هم ، في النهاية ، أبناء هذه البلاد .

– إنهم سريان أَليس كذلك؟

● لا ، بل عرب . أكثر ناس عروبة في لبنان هم الموارنة ، إنهم عرب أقحاح .

– بينما المسلمون تركمان وألبان وأرناؤوط وشركس وعجم . إذاً

الموارنة عرب . لكن طقسهم سرياني .

● الطقس الديني سرياني . في اليمن كان الطقس سريانياً لدى المسيحيين العرب . قس بن ساعدة الإيادي ، وهو أفصح العرب ، كان عندما يقدّس يقدّس بالسريانية .

– الكنيسة السريانية امتدت إلى الهند . وحتى اليوم هناك سريان في الهند يسمونهم «المسيحيون السوريون» .

● السريان موجودون في ساحل مالابار[1] .

– إذا كانت هناك اتهامات للموارنة بأنهم صادروا البلد ، ولا سيما في عهد الشيخ بشارة الخوري ، ثم في عهد كميل شمعون ، فقد كانوا في شراكة مع السنة ، ولم يكونوا وحدهم .

● كلهم «قابرين الشيخ زنكي سوا» .

---

(١) ساحل مالابار هو الساحل الجنوبي الغربي للهند . والمسيحيون السريان موجودون في ولاية كيرالا . وقد أسس هذه الكنيسة السورية مار توما أحد حواريي المسيح بعدما عاش في تلك الأنحاء ثلاث سنوات وهو يبشر فيها (سنة ٥٢ ميلادية) ، ومنها انتقل إلى ملقة (ملاوي أو ميانمار حالياً) ثم إلى الصين . وفي ٧٥/١٢/١٨ ميلادية بينما كان مار توما عائداً إلى مدراس طعنه كهنة محليون بالرماح ، وتوفي في ٧٥/١٢/٢١ ، ودفن في مدراس . وفي ٣٩٤/٧/٣١ ميلادية نقل رفاته إلى الرها . وعدد السريان في الهند اليوم يناهز المليون نسمة . وقد وُجد في مدينة سنغان الصينية نقش حجري بالسريانية والصينية يعود إلى سنة ٧٨١ ميلادية .

صراع التين والتمر

- هل لبنان عربي أم متوسطي أم سرياني أم فينيقي؟

● لبنان عربي . أكثر بلد عربي عروبة هو لبنان . وفيه جميع أخطاء العرب ، وجميع صفات العرب الحميدة . نحب الحرية «ونتزعرن» . هات تاريخ العرب واعصره تجد تاريخ لبنان . وبهذا المعنى فإن لبنان أكثر بلد عربي في العالم العربي . إنه بلد عربي لا دين له . كان المرء يذهب إلى إفريقيا الشمالية فيجد ما يسمى «المسلمون الفرنسيون» ، ولا توجد كلمة عربي . اليوم صاروا يقولون عن أنفسهم عرب . وعندما يقولون عربي فهذا يعني إنه «مسلم» . أنا تجولت في العالم العربي المشرقي . لم أجد مكاناً إلا اعتقدوا فيه أنني مسلم . وعندما أقول لهم أنا لست مسلماً بل مسيحي ، كانوا يصابون بالدهشة ، ويروحون يسألونني : إذاً كيف تتكلم العربية؟

- لا يستطيعون التفريق بين الدين والقومية . ميشيل عفلق أبو القومية العربية الحديثة ، ومعه قسطنطين زريق ، وكذلك جورج حبش وأنطون سعادة ، هؤلاء جميعهم مسيحيون . هذه المشكلة موجودة في شمال إفريقيا . ولكن في المشرق العربي (لبنان وسورية وفلسطين والأردن والعراق) أعتقد أن هناك وضوحاً في أن العروبة هي إطار ثقافي وحضاري ، أما الدين فشأن آخر .

● بلادنا ، وأنا أحب استعمال كلمة بلادنا حتى تشمل أبعد من لبنان ، وكي لا يقولون عني هذا سوري قومي أو قومي عربي ، هي أرض العروبة الأصلية . العروبة لم تأتِ من الجزيرة العربية ، بل نشأت هنا .

– تقصد العروبة كفكرة وكثقافة .

● لا . العروبة كلغة . أول كتابة عربية ظهرت في بلادنا ، قرب درعا في حوران . كان عالم الآثار الفرنسي الشهير مسيو دونان الذي اشتغل على جبيل ، وجد في درعا نصّاً بالحرف المسمى فينيقياً ، وهو الحرف الذي كتبت به لهجات مختلفة من اللغة الكنعانية ومنها العبرية التوراتية ومنها ما يسمونه الفينيقية ، ومنها لغة شرق الأردن المسمّاة موآبية . . . إلخ . هذا النقش حيرهم . ولم يتمكنوا من فك لغته أو قراءته بالفينيقية أو الكنعانية . جربوا جميع اللهجات الكنعانية ولم يستطيعوا شيئاً . أخيراً ، خطر في بالهم قراءته بالعربية . فتبين أنه عربي ، ومكتوب بالحرف الكنعاني . وهذا يعني أن العربية ليست أحدث لغة كنعانية . الكنعانية كُتبت قبل العربية ، لكن العربية هي أقدم اللغات السامية . واللغة الكنعانية هي مجرد لهجة من لهجات العربية ، وكذلك اللغة الآرامية والتي ألفظها هكذا : إرامية (بكسر الألف) بحسب لغة القرآن .

– مثل إرم ذات العماد[1] .

---

(١) مدينة غير موجودة ، قيل إنها بُنيت في وسط اليمن ، وبعض يقول إنها دمشق . وردت ذات العماد في القرآن : «ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد» . وإرم هو بحسب المصادر الشائعة والتي تفتقر إلى الدقة هو إرم بن سام بن نوح ، وهناك مواقع تدعى إرم صوبا وإرم النهرين وإرم دمشق .

● إنها إرامية ، ولكن لا أستطيع البرهان على ذلك الآن . هي لهجة من لهجات العربية ، وعلاقتها بالعربية مثل علاقة العربية الدارجة بالعربية الفصيحة .

– هذه نظرية تختلف عن الكلام الذي يقول إن العربية والآرامية والعبرية هي من المجموعة اللغوية نفسها . وأنت هنا تقول إن الارامية ابنة العربية .

● الفكرة هي أن هناك لغة النبط في البادية . يقال : استنبط البدو .

– أي التحول من البداوة إلى الفلاحة .

● بدأوا يحفرون ويستخرجون المياه ويصبحون مزارعين . يستنبطون تعني يستخرجون المياه . يقال عن أهل البحرين إنهم عربٌ استنبطوا . أهالي عُمان نَبَطٌ استعربوا . والأنباط عرب استنبطوا . وإحدى مآسي التاريخ أن اليهود اتخذوا الاسم الغلط لهم . هم يهود وليسوا إسرائيليين . ثم إنهم أغلقوا على أنفسهم الأبواب التي يمكن أن تساعدهم في فهم أنفسهم وتاريخهم ولغتهم وأدبهم .

– انتقلوا من غيتوات أوروبا إلى غيتو كبير .

● انتقلوا إلى غيتو أسوأ ، لأنهم حين كانوا في غيتوات أوروبا ظهر فيهم عباقرة .

– علم الآثار الإسرائيلي مابرح يبرهن صحة نظريتك ولو بصورة غير مباشرة . وعلماء الآثار الإسرائيليون لم يجدوا خشبة واحدة حتى الآن ، لا من هيكل سليمان ولا من حقبة داوود ولا أي أثر مما ورد في الرواية التوراتية التقليدية[1] .

---

(١) فشل علم الآثار الإسرائيلي في إثبات وجود الإسرائيليين في مصر ، أو في تحديد مكان جبل حوريب في سيناء ، أو محطات اسباط إسرائيل خلال التيه ==

● إنهم يقولون الحقيقة .

- يقال إن البحر المتوسط ، أو البحر بشكل عام ، مثل الدوبرياج في السيارة : فاصل وواصل . فهو يفصل ويوصل في الوقت نفسه ، على عكس الصحراء التي من الممكن أن تفصل بين حضارتين . ما مدى صحة هذا الكلام؟ هل تعتقد أن البحر الأبيض المتوسط قادر على أن يجمع هذه الشعوب المنتشرة على شواطئه ، ولا سيما أن الفكرة المتوسطية معروضة اليوم في السياسة والثقافة معاً ، وهل لهذه الفكرة أي عنصر من عناصر القوة؟

● صورة الشرق الأوسط لدينا مستمدة من خريطة بلدان الشرق الأوسط التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، وهي خريطة سياسية ، وفيها بلدان لم يخلقها الله بل خلقها الفاتحون من خارج نطاقها . أنا منذ كنتُ أُعلّم كنت أرسم على اللوح صورة المنطقة بلا حدود سياسية . ثم أحدد الجبال والسهول والأنهر والشواطىء

== في الصحراء . وقد حوّل الصهيونيون علم الآثار من علم إنساني ينشد الوصول إلى الحقائق العلمية إلى علم سياسي ، وعلى أيديهم باتت التوراة لا «تاريخاً» تحول إلى أساطير ، بل خيال تحول إلى تاريخ . غير أن بعض علماء الآثار الإسرائيليين أمثال زئيف هيرتسوغ ويسرائيل فنكلشتاين ونيل سيلبرمان تجرأوا على المجاهرة بأن علم الآثار الإسرائيلي يبرهن ، يوماً بعد يوم ، أن قصص التوراة مجرد حكايات خرافية . وينفي هيرتسوغ صحة هجرة اليهود إلى مصر وتبلورهم فيها كشعب ، كما ينفي حكايات الدخول إلى فلسطين وتحطيمهم القلاع والأسوار ، وينفي قصة المذبح على جبل عيبال ، أي مذبح إبراهيم وابنه اسحق . وذلك كله يبرهن صحة نظرية كمال الصليبي بطريقة غير مباشرة .

والأودية . الأودية مهمة جداً ، ففيها تستطيع السير بسهولة أكثر ، وأمان أكثر من الأمكنة المفتوحة . وحيث توجد أنهار أو آبار تستطيع الشرب . وحيث توجد قرى أو واحات تستطيع الاستراحة والنوم والتزود بالأكل . عندما تحدق في هذه الخريطة ، ترى ما لا تراه في الخرائط الحديثة . مثلاً ، انظر إلى خريطة مصر ، تجد أن مصر تشبه المستطيل (Rectangle) . هكذا رسمها الإنكليز والفرنسيون والدول الغربية بلا تعب . شقوها مثل قطعة الكعكة (Cake) . لكن مصر ليست هكذا . مصر هي وادي النيل وفي آخره الدلتا . إنها مثل زهرة القرنفل . الدلتا هي القرنفلة ، ووادي النيل هو العرق المتعرّج . هذه هي مصر . تترك الدلتا وتترك مصر نحو الجنوب فتصل إلى جهة أسوان ثم إلى الكرنك في وادي الملوك . تقطع النهر في وادي الملوك فتجد القبور الملكية . تقف فتجد أمامك مصر كلها . النهر من هذه الجهة أخضر ، من الجهة الثانية أخضر ، ثم صحراء مترامية .

- إنها شريط من الماء والخضرة .

● هذه هي مصر . عندما تصل إلى الدلتا يصبح الشريط أعرض ، وتصبح أشبه بالبلدان التي لها شكل محدد . أما الباقي فهو صحراء . كم شخصاً شاهد مصر هذه؟ قلائل . لكن عندما نرى مصر بشكلها هذا يمكن أن نفهم أموراً كثيرة . نفهم قصة المياه في مصر ونمط الحياة فيها الذي يمتد إلى السودان جنوباً . ونعرف لماذا يوجد الصعيد والنوبة . . . إلخ . ونأتي إلى سوريا أيضاً . سوريا هي بلاد الشام . وهي على غرار قطعة الكعكة أيضاً لكنها عوجاء قليلاً . عندما ذهب جدي إلى الخليل ليعمل هناك ، ثم انتقل إلى السلط ، كان ، بحسب مدوّناته ، كأنه ينتقل من فلسطين إلى فلسطين . وهو كان يستعمل

كلمة فلسطين نقلاً عن الأجانب لأن السكان المحليين لم يستعملوا كلمة فلسطين. ليس هناك تاريخ من دون التأمل في الجغرافيا. ولأنني تعلمت التاريخ والجغرافيا بعدما درست أصول القراءة وأصول الكتابة على أناس متمكنين أجلّهم وأحترمهم، فأول ما قمت به هو أنني اشتريت سيارة فولكسفاغن سنة ١٩٦٢ودرت بها في الشرق الأوسط. والأماكن التي لم أستطع الوصول إليها بالفولكسفاغن، طرت بالطائرة إليها. وعندما أصل أستأجر فولكسفاغن للتجول في أنحائها، أو أتدبر سائقاً محلياً يأخذني إليها. وعندما أصل أتوقف وأمشي. أمشي حتى أرى كيف تتصل الأماكن بعضها ببعض. جرّب المشي ترَ أشياء لا تراها وأنت في الطائرة. الشرق الأوسط أو ما نسميه الشرق الأوسط هو شبكة مسالك وطرق بما فيها الطرق الرملية، التي هي طرق تجارة وطرق هجرة وطرق حركات وطرق رحلات وطرق شم الهواء وطرق رعي وطرق تربط أماكن بأماكن أخرى؛ تربط بلاد الأنباط ببلاد العرب أو الأعراب، وتربط البادية بالحواضر المحيطة بها وبالحواضر الموجودة في وسطها. والبادية ليست مجرد قفر وحولها حواضر. لا. في الحواضر هناك صحارٍ وبواد. وفي البوادي ثمة حواضر. وأنت قلت إن الصحراء تمنع والبحرَ يسهّل. البحر أحد مسالك الشعوب. والسؤال: أيهما أسهل أن تجتازه؟ المسالك البرية أم المسالك البحرية؟

- البرية.

● البرية أسهل، ولكن البحرية أسرع. وعندما تكون هناك دولة قوية تستطيع أن تتحكم بمداخل البحر، يصبح اجتياز البحر أكثر سهولة. وعندما لا تكون الدولة قوية يصبح البحر خطراً، وتتحول التجارة إلى البر. الآن هناك طرق الجو، وهذا أمر موضوعي، ولم

أتوصل حتى الآن إلى فهمه. ولكن لا بد أن يصبح الجو جزءاً من الجغرافيا التاريخية. لهذا، فإن في السؤال الذي سألتني إياه غلط. أما الفكرة المتوسطية التي ربما يُساهم البحر المتوسط في ربط أطراف البلدان الواقعة على شواطئه، فهذه ليست جديدة. دائماً كان البحر المتوسط يربط الدول الواقعة على شواطئه تجارياً وثقافياً، وهو ما كان يفعله الفينيقيون. وهذه التسمية أطلقها اليونانيون على السكان المنتشرين بين اللاذقية وعكا وحيفا. وكلمة «فاينيكا» تعني البلح. ومنها شاطىء البلح. والناس الذين سكنوا شاطىء البلح جاؤوا من بلاد بلح، أي من شواطىء البحر الأحمر بحسب ما يقول هيرودوس. أما الذين يريدون إنكار الأصل العربي للفينيقيين، فيقولون إن هيرودوس كان خرفاً وكثير الكلام. وأنت لا تحتاج إلى أكثر من المنجد. أنظر تحت الجذر بلح ترَ طير البَلَح وهو العنقاء.

- الذي يسمونه طائر الفينيق.

● يقولون إنه الفينيق. نحن نتفلسف ونستعمل الكلمة اليونانية. اسمه العنقاء أو طير البُلح الذي عندما يهرم يطير ويحرق نفسه ويعود إلى الحياة ثانية[١]. وهذه الأمور تعلمتها من إنسان مهم جداً جداً، وقد مات وأنا زعلان منه. لقد مات شاباً، واسمه محمود الغول، وهو من أكثر الناس علماً، لكنه مات ولم يؤلف كتاباً واحداً. هو من بلدة

---

(١) فونيكس Phoenix تعني شجرة النخيل أو طير الفينيق. وفينيق هو أيضاً الثور المقدس في الميثولوجيا العربية القديمة. و«فينيقا» قرية ما زالت قائمة حتى اليوم في غرب شبه الجزيرة العربية. وحتى طنوس الشدياق في كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» يقول إن فينيقيا تعني بلاد النخيل.

سلوان قرب القدس[1] . محمود الغول كان يعلّم في لندن وتعلّم في جامعة أدنبره وعلّم في الجامعة نفسها وفي جامعة لندن ، وكان أكبر خبير في شؤون الجزيرة العربية ولغاتها . فإذا تحدث في موضوع محدد أُسلّم أنا بكلامه . وقد تعلمت منه كثيراً وكم كنت أقول له : يا محمود كلنا من النوع الفاني الذي لا يستمر في العيش طويلاً . . . الله يطول عمرك أُكتب ما تقوله في محاضراتك . فكان يجيبني : لا ، لا . لا زالت هناك مسألة أريد استكمالها ، ويجب أن أذهب إلى اليمن لأرى . وأجيبه : يا محمود يا حبيبي الله يخلّيك ويطول عمرك ، سجّل ما تُلقي ثم «صلّح بعدين» . أبداً . لم يكتب شيئاً ، ولكنه كتب موضوعات في الموسوعة البريطانية تتحدث عن الجزيرة العربية . محمود الغول قال لي إن الذين يسمونهم فينيقيين أصلهم من البحر الأحمر . والبحر الأحمر يجوز أن يكون الخليج العربي أو البحرين أو عُمان . ولكن الأرجح أنه البحر الأحمر مع جدّة وعسير وجيزان واليمن . هذه بلاد نخيل .

– وفي هذه المنطقة تقع الجبيل .

● نعم . وسكانها كلهم بحارة وصيادو سمك وتجار . وحتى يقوموا برحلات بحرية طويلة كانوا يحتاجون إلى طعام كامل (Complete food) . وكان التمر هو الطعام الكامل . يحملون التمر وينطلقون إلى الهند والسند وما جاورهما ، أو نحو الساحل المصري فالشامي ويتجولون

(١) تخرج محمود الغول في جامعة أدنبره البريطانية بشهادة عالية في اللغات القديمة . درّس في الكلية العربية في القدس ، ثم في الجامعة الأميركية في بيروت ، وفي جامعة اليرموك في الأردن ، وتوفي سنة ١٩٨٥ .

في موانىء البحر المتوسط وهناك بالتحديد التقوا اليونانيين أو اصطدموا بهم . اليونانيون كانوا بحارة أيضاً ، لكن ليس لديهم تمر ، بل تين . وعندما كانوا ينطلقون في رحلاتهم يأكلون التين ، وأولئك يأكلون التمر . فأسماهم اليونانيون أهل التمر . أنا أقنعني هذا الكلام خاصة عندما جاء محمود الغول وقال لي : كلمة «فاينكس» تعني طائر البُلح ، كي لا نقول العنقاء (The Bird of Arabia) ، أو طائر العرب . هؤلاء حين التقاهم هيرودوس في صور قال له أكابر الأعيان : نحن أتينا إلى هنا قبل ٢٣٠٠ سنة . وكان هيرودوس التقاهم في سنة ٤٥٠ قبل الميلاد ، أي ٢٧٥٠ سنة قبل الميلاد جاء الفينيقيون ومراكبهم وعائلاتهم واستقروا على هذا الشاطىء ، وانطلقوا منه إلى منافسة اليونانيين . وانتصر البلح على التين إلى حد ما ، ثم التين على البلح ، إلى أن سقط الفينيقيون وتركوا خلفهم أماكن ونقوشاً لا زالت حتى الآن تحيّر اليونانيين ، ثم قضى الإسكندر الكبير على حضارة أكلة البلح والذين ما عادوا يأكلون البلح . وبعد ذلك أتى الرومان وقضوا على اليونان ، وبقي البحر الأبيض المتوسط أو بحر الروم مترابط الأطراف إلى أن جاءت الفتوحات العربية . وهنا وقع ما يشبه الحرب العالمية التي دامت قروناً . وفي هذه الأثناء أقفل البحر ، فعادت القوافل وطرق القوافل البرية إلى الازدهار ، فالتجارة لا تتوقف .

طانيوس شاهين
والبطريرك الحجولي و«التفخيت»

- كيف ترى المشهد العربي اليوم بعين المؤرخ بعدما مررنا بحرب أهلية في لبنان، فيما الاحتلال في فلسطين ما زال مستمراً. والعراق بات محتلاً. والسودان ذاهب إلى التقسيم، علاوة على ثورات الشعوب والحروب المتمادية؟

● عشنا في إطار دولة عثمانية ٤٠٠ سنة وكان وضعنا فيها ممتازاً، مسلمين ومسيحيين ويهوداً. الظلم الذي وقع علينا وقع على الأتراك أيضاً. الأتراك لم يدفعوا ضرائب أقل منا. والأتراك حاربوا أكثر منا، وأرسلوا أبناءهم إلى الحروب أكثر منا. والدراسات الحديثة كالدراسات التي يقوم بها الدكتور عبد الرحيم أبو حسين، ولديه دراسة عن الطوائف المسيحية، تبرهن أن المسيحيين كانوا يعيشون في أمان، وكانوا، لمدة طويلة، معفيين من الخدمة العسكرية. حتى جاء القرن التاسع عشر فصار العثمانيون يخيّرونهم بين الخدمة العسكرية أو دفع البدل. كثُر منهم اختاروا الخدمة العسكرية. ونحن نفتخر أنهم كانوا يختارون الخدمة العسكرية دائماً. أنا أقول، كما يقول الكبار في السن، «منستاهل الشيء إللي صار» لأننا خنّا أنفسنا. نحن انقلبنا على الأتراك من دون أي فائدة ومن دون أي سبب وجيه. لو لم ننقلب

على الأتراك لكنا أكثر احتراماً . لقد داسونا ، أخذوا لنا بترولنا ، وصار قدح البترول يعادل آلاف الأرواح العربية . ثم إن ثلاثة أرباع الكلام الذي قاله العرب والقوميات الأخرى عن العثمانيين والحكم العثماني غلط ، وثلاثة أرباعه مأجور . ومع الأسف فإن الذين استؤجرت أقلامهم ماتوا ، ولكن لا زال غيرهم أحياء ، وإخوانهم أحياء . التاريخ ليس نظيفاً . ومن كان تاريخه غير نظيف لا يستطيع طلب العزة والكرامة .

- باختصار ، أفهم منك أن ما يحصل في فلسطين والعراق والسودان ولبنان هو في النهاية من شغل أيدينا؟

● بالطبع . وهو ، إلى حد كبير ، شغل أيدينا . أنا أقول إننا في لبنان دخلنا مدرسة الحرية مبكراً وأسأنا استعمالها .

- لم يستطع اللبنانيون إنشاء نظام عادل للمواطنين ، ونظام للمواطنة المتساوية بل أنشأوا نظاماً للطوائف .

● فلسطين مشكلتها هي المشكلة الأساس . هناك مؤامرة عالمية عليها . ولكن المشكلة تكمن في المجتمع الفلسطيني نفسه ، فقد كان هناك بكوات وفلاحون وأعيان . وبين هؤلاء وهؤلاء لم تكن توجد علاقة عضوية ، ولا توجد علاقة حضارة . يعيش الأعيان في المدن بشكل محدد ، ويعيش الفلاحون في القرى بشكل مختلف . أهل المدن يحتقرون الفلاحين ، والفلاحون يبغضون أهل المدن . وأهل المدن ليس لديهم قوة ، بينما الفلاحون لديهم القوة . وعندما حدثت ثورة ١٩٣٦ لم يستطع الفلاحون أن يطوروا قيادة لهم ، وجاءت القيادة من المتعلمين . لكن هؤلاء لم يستطيعوا قيادة الثورة لأن الثورة كانت مستقلة عنهم ، وهي التي كانت تقودهم ، وكانوا هم يتبعونها حتى يحافظوا على مكانتهم . هذه هي القصة . أما الباقي فتفصيلات . لبنان

أمر مختلف . الزعماء وأبسط الناس هم أقارب . نظام عشائري لا يوجد فيه بكوات وفلاحون . عندما يغني الواحد بعد سكرة يسمي نفسه «بيك» . وعندما يكبر كرشه قليلاً يصبح «بيك» . وإذا عاد وصغّر كرشه لا يعود بيكاً . إذا زادت أمواله يصير شيخاً . . . إلخ . وعلى سبيل المثال فإن الزعيم الدرزي والفلاح الدرزي أَخوان . والمسيحيون مثلهم . الزعماء في كسروان والفلاحون أقارب ، والفوارق بينهم قليلة . بيت صفير مثلاً منهم البطريرك ومنهم أبسط الناس . وحتى العائلات التقليدية ، لنقل آل الخازن وآل حبيش ، هم على المنوال نفسه . صحيح أن بعض المشكلات تظهر بينهم أو بين الأغنياء منهم والفقراء ، إلا أن هذا يعتبر أمراً اعتيادياً وهو social class أو كما يقال Human Relationships Cut across social class . وهذا ما جعل اللبنانيين قادرين على المشاركة في تقرير مصيرهم أكثر من الفلسطينيين . هنا مجال للتفاهم . هناك لا يوجد مجال للتفاهم . في فلسطين يذهب البيك إلى القرية فيطبخون له المسخّن والمنسف ، وإذا لم يعجبهم يشتمونه ويقولون له «حل عنا» . وعندما اندلعت الثورة في سنة ١٩٣٦ راحوا يطالبون البيك ، الذي كان يعتمر الطربوش ، بارتداء الحطّة والعقال ، ويهددونه بالقتل إذا لم يعتمر الحطة والعقال[١] .

(١) في ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية اكتسحت الكوفية رؤوس الرجال ، وطردت الطربوش من الوجود ، ثم ظهرت بيانات تدعو المواطنين إلى ارتداء الكوفية السوداء والبيضاء ، أو «القضاضة البيضا» ، اي الحطة والعقال . وفي الأسواق كان الباعة يرددون : «الكوفية بخمس قروش والنذل لابس طربوش» أو «حطة وعقال بسبع قروش وعرص إللي بيلبس طربوش» . ومع إعلان الثورة الفلسطينية المعاصرة في ١٩٦٥/١/١ وارتداء ياسر عرفات إياها بشكل دائم ، صارت الكوفية رمزاً عالمياً للقضية الفلسطينية .

– مُنع الطربوش آنذاك . ولكن كان هناك قضاة في الأرياف من أعيان المدن الداخلية .

● القضاة هم بقايا النظام العثماني . أما النظام الذي أدخلته بريطانيا فهو شأن آخر . أنا أتحدث عن الأمور الطبيعية التي تربط المجتمع ، بغض النظر عن الدولة المسيطرة .

– تقصد مؤسسات المجتمع الأهلي التقليدي .

● صح . هناك انفصال قوي بين الريف والمدينة .

– ألم يحدث ذلك في سورية أيضاً؟ لنقل إن الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان الأطرش لم تنجح لأنها ظلت محصورة في الريف .

● في سورية آنذاك ، كان جبل العلويين دولة ، وحلب دولة ، والشام دولة ، وجبل الدروز دولة . جبل الدروز كان دولة عشائرية لأسباب عشائرية درزية . وقد تصادمت المصالح العشائرية لقسم من آل الأطرش مع مخطط الفرنسيين الذي كان يهدف إلى تحسين الأوضاع في جبل الدروز مثل شق الطرق وافتتاح المدارس . . . إلخ . أما آل الأطرش فلم يكونوا جميعهم راضين عن هذا المخطط الذي ربما يسلبهم مكانتهم ، وأرادوا استمرار العلاقة القديمة مع الناس التي هي علاقة مُلاّك بفلاحين ، وصار بينهم احتكاك . وهذا الاحتكاك أدى إلى استخدام لغة العصر آنذاك ، أي القوة . فالفرنسيون مستعمرون ، وآل الأطرش وطنيون ، وقامت ثورة درزية ضد الفرنسيين لأنهم حين أرادوا التفاوض مع المفوض السامي الفرنسي في بيروت ، وكان هذا المفوض أرعن ، لم يعرف كيفية التحدث إليهم باحترام .

– إذاً الثورة كانت ردة فعل على التعرض للكرامة .

● نعم . لكن من الذي استغل ثورتهم حينذاك؟ البرجوازية الشامية ، أي بكوات دمشق الذين راحوا يطالبون بسورية موحدة .

– لكن الثورة ، مهما تكن دوافعها ، أسقطت تقسيم سورية إلى دول طائفية . وهذا أمر عظيم .

● لا توجد علاقة عضوية بين الثورة الدرزية والثورة السورية . لكن في نهاية الأمر أصبحت الثورة الدرزية ثورة شاملة ، ولا يستطيع الإنسان رؤيتها منفردة جراء سيطرة الجانب الدمشقي عليها .

– أمثال عبد الرحمن الشهبندر ونسيب البكري وفوزي البكري . . . وأقرانهما .

● هؤلاء قادوا السياسة . الدروز يقومون بالثورة المسلحة ، والدمشقيون يفاوضون فرنسا سياسياً . وفي هذا السياق كان الشهبندر صديق والدي[1] .

– يقال إنه كان يمتلك شخصية جذابة وإنه كان ماسونياً .

● نعم ، كان ماسونياً . ولكن والدي كان يحبه مع أنه كان يكره الماسونية . وعندما سمع خبر اغتياله أصيب بالكآبة ، وراح يردد «شو

---

(1) ولد في دمشق سنة ١٨٨٢ ، ودرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت . أصبح وزيراً لخارجية الملك فيصل . أسس حزب الشعب سنة ١٩٢٥ ، وقاد الثورة السورية الكبرى سياسياً ، بينما كان قائدها العملي سلطان باشا الأطرش . أفتى الشيخ مكي الكتاني بقتله ، وكان لهذا الشيخ صلة بالمكتب الثاني الفرنسي ، وكانت «الكتلة الوطنية» تحرض دائماً على مواجهته . وعندما اغتيل في ١٩٤٠/٧/٦ هرب زعماء الكتلة الوطنية إلى العراق وهم جميل مردم ولطفي الحجار وسعد الله الجابري .

كان بدّو عبد الرحمن بهذه القصص» .

– في سياق الحديث عن أهل الريف وأهل المدن ، وأن لا فارق أحياناً بين الشيخ والفلاح ، كيف تفسّر إذاً انتفاضة طانيوس شاهين[1]؟

● هذه قصة محلية وهي أن آل الخازن في كسروان ، ومعهم عائلتان هما آل الدحداح وآل حبيش اشتروا من رؤساء عشائر شيعية أرضاً في المقلب الثاني من الجبل ، أي نحو بعلبك ، وفي مقلب جبة المنيطرة أيضاً ، أي مقلب الجبل نحو الشمال . وصاروا يجلبون فلاحين موارنة من بلاد البترون وجبيل ويسكنونهم في هذه الأرض . وكما حدث في فلسطين جاء الفلاحون الموارنة وسكنوا في القرى الشيعية ، وكانوا يسمون «متاولة» . وبسبب هذه المجاورة ، ثم المنافسات والاحتكاكات اللاحقة ، صاروا يشتبكون[2] . إنها لغة الطبيعة بين

---

(١) طانيوس شاهين بيطري من آل سعادة . ولد في بلدة ريفون ، وقاد حركة شعبية ضد آل الخازن بتشجيع من البطريرك بولس مسعد . وقد بدأت هذه الحركة في ١٨٥٨/١٠/١ حين اجتمع في منزل صالح جرجس صفير في عجلتون أهالي البلدة بقيادة إلياس المنيّر ، وقرروا التصدي لآل الخازن . وكانت هذه بداية الحركة . وفي ١٨٥٩/١/١٩ هاجم المنتفضون بقيادة طانيوس شاهين آل الخازن في كسروان وطردوهم من أملاكهم . اعتقل وهدم منزله في سنة ١٨٦٠ ، ومات منبوذاً في ١٨٩٥/٢/٣ .

(٢) بدأ نزوح الموارنة من جبل لبنان (أي جبة بشري وبلاد البترون وجبيل والمنيطرة) إلى كسروان مع بداية الحكم العثماني لبلاد الشام . آنذاك قسمت سوريا إلى ثلاث ولايات : ولاية دمشق ، ولاية حلب ، ولاية طرابلس . وكانت بلاد الموارنة ==

أناس لا ينتمون إلى الأصول نفسها أو إلى الدين نفسه . وكان للقصص والخرافات المتوارثة لديهم أثر في التباغض . أخيراً تدخل آل الخازن مع مشايخ «المتاولة» واتفقوا على سحب الفلاحين «المتاولة» إلى الداخل . وبعد ذلك تملّك آل الخازن هذه المناطق . الفرنسيون عيّنوهم قناصل في بيروت . وهناك علاقة وثيقة بين التجارة وملكية الأرض . وقد سمعت عارف أبو نكد الذي يسمونه عارف النكدي[1] ، والذي كان يعرف قصصاً كثيرة عن أسرار تلك الفترة ، أن آل الخازن ليسوا مشايخ كمشايخ الدروز . فمشايخ الدروز هم مشايخ عشائر ، مثل بيت

== تابعة لولاية طرابلس ، بينما كانت كسروان والمتن والجرد والغرب والشوف تابعة لولاية دمشق . وكان آل عساف التركمان ملتزمي ضرائب كسروان التي يقطنها الشيعة . وفي تلك الحقبة بدأ نزوح الموارنة من الشمال إلى كسروان بتشجيع من آل عساف السنة ، فقد كانوا يواجهون التمرد الشيعي في بلاد كسروان . وكان الشيخ حبيش من موارنة يانوح ، وأصله من حوران ، قد انتقل إلى كسروان واستقر في غزير ، ودخل في خدمة العسافيين وساعدهم في إخماد العصيان الشيعي .

(١) ولد في بيروت ١٨٨٧/١/١٣ . درس في المدرسة العلمانية الفرنسية وفي الكلية العثمانية في بيروت . عمل قاضياً في لبنان سنة ١٩١٣ ، ثم انتقل إلى دمشق سنة ١٩١٩ ، وانضم إلى حلقة قومية عربية . تولى مناصب كثيرة في سورية منها رئاسة مجلس الشورى (١٩٤٦ – ١٩٤٨) ، وكان عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وتوفي في سنة ١٩٧٥ . ومن غرائب المواقف أن الشيخ علي الطنطاوي كان يردد أنه يقدر السياسي المسيحي فارس الخوري ونزاهة القاضي الدرزي عارف النكدي ، لكنه لا يصافحهما (أنظر : غسان الإمام ، «زمن الكراهية» ، جريدة «الشرق الأوسط» ، ٢٠٠٧/٧/٣) .

جنبلاط وهؤلاء تحتهم عشيرة جنبلاطية مؤلفة من عائلات عدة . وعندما تجتمع العشيرة يكون مرجعهم بيت جنبلاط هؤلاء المشايخ هم ، في الوقت نفسه ، رؤساء عشائر . أما عند الموارنة فلم تكن هناك عشائر . كانوا ملاّكين . وهؤلاء حصلوا على الملك بطرق غير واضحة ، وأحياناً ملتوية . وقد حاز آل الخازن كثيراً من الأرض بمساعدة فرنسا . وجاء وقت أصبح فيه آل الخازن يحتقرون أعيان الفلاحين الموارنة في كسروان ، وراحوا يمارسون عليهم بعض التصرفات التي كانت سائدة في فرنسا في عهود سابقة . مثلاً عادة التفخيت ، وهي أن للشيخ في ليلة العرس الحق في مضاجعة العروس اولاً[١] .

- **حق الليلة الأولى .**

● حق الليلة الأولى وأمور من هذا النوع . وسيطر آل الخازن وآل حبيش على الأملاك ، علاوة على أنهم صاروا ورثة مار بطرس . ومن ثمار ذلك أنهم أتوا ببولس مسعد[٢] ، وهو فلاح ، بطريركاً على

(١) يذكر أنطوان ضاهر العقيقي في كتابه «ثورة وفتنة في لبنان : صفحة مجهولة من تاريخ الجبل» (حققها ونشرها يوسف إبراهيم يزبك ، بيروت : مجلة «الطليعة» ، ١٩٣٩) أن الشيخ منصور حنا دندش الخازن من كفرذبيان ضاجع ابنة اغناطيوس عقل بطيش ، فأحبلها وولدت صبياً . ورفض آل الخازن الاعتراف بالولد ، وقرّ رأيهم على قتل الأم والولد معاً ، على أن يتولى منصور الخازن ذلك بنفسه (يقلع زرعه بيديه) . فأخذ منصور الخازن المرأة يوسفية أغناطيوس عقل وابنها (ابنه) إلى مغارة وضاجعها ثانية ، ثم قتلها مع وليدها .

(٢) ولد بولس مسعد في عشقوت سنة ١٨٠٦ ، ودرس في روما . نصب بطريركاً على الموارنة في سنة ١٨٥٤ ، وفي عهده جرت عامية انطلياس سنة ١٨٥٩ . أسس مكتبة بكركي ، وتوفي في سنة ١٨٩٠ .

الموارنة . ولهذا قام طانيوس شاهين وكان بيطاراً ومتوحشاً قليلاً ، وحتى الفرنسيون الذين كانوا إلى جانبه قالوا عنه إن لديه طبائع وحشية ، ومعه آخرون من الفلاحين بهجوم على آل الخازن وهجّروهم من كسروان إلى بيروت ، وقالوا لهم ابقوا في بيروت . أما طانيوس شاهين فكان يأخذ الأمور بالهوبرة ، ثم يتبين أنه coward أي جبان . وهذا الشخص شكل جيشاً في سنة ١٨٦٠ وهجم على الشويفات . والشويفات مشهورة أن فيها مسيحيين ودروزاً ، وخرج أهلها ليقولوا له : نحن متفقون هنا ولا مشكلة لدينا . وتفضل حتى نستقبلكم ونطعمكم ، لكن عليك أن ترحل بعد ذلك . وما إن خرج الناس لملاقاته حتى هرب . ولم يكتفِ بذلك بل وعد هو ويوسف كرم أهل زحلة بالقدوم من الشمال لنجدتهم . ويوسف كرم هذا الذي يسميه بعضهم بطلاً ، طلب من أهل زحلة معاندة الدروز قليلاً حتى يتمكن من الوصول إليهم لمساعدتهم . وشرع الزحلاويون يطبخون للقادمين من الشمال . مساكين هؤلاء ، صدقوا أن جيشاً عرمرمياً من الشمال بقيادة يوسف كرم وطانيوس شاهين وغيرهما سينقذهم . وبالطبع لم يأتِ طانيوس شاهين ولا يوسف كرم ، بل أتى من قال لأهل زحلة : انتبهوا لن يأتي إليكم أحد . وقد شاهدنا طانيوس شاهين وجماعته هاربين نحو الشمال . عند ذلك هرب أهل زحلة باتجاه نهر الكلب واحتل الدروز زحلة .

- **من غير معركة .**

● ربما بمناوشات بسيطة ، والأرجح من دون مناوشات . فقد تركوا المدينة فارغة من الناس .

- **تركوا قدور طبيخهم على النار .**

● كانوا يطبخون لمن توسموا فيه الخير .

– ذلك الذي أقاموا له تمثالاً في إهدن . أَليس هو يوسف كرم؟

● صحيح .

– ننتقل إلى الكلام على هجرة المسيحيين ، وهو كلام كثير في هذه الأيام . وتكاد أرض المسيح ، أي فلسطين ، تصبح بلا مسيحيين ، وكذلك الأمر في العراق . ولم يبق للمسيحيين على ما يبدو إلا سورية ولبنان ومصر . وها هم في السودان يؤسسون دولة لهم . هل تتخيل في لحظة ما أن تتطور الأمور في مصر مثلاً إلى تفتيت هذا البلد على غرار السودان على قاعدة مسلمين وأقباط ونوبيين؟

● السودان حالة خاصة ، لأن المسيحيين في السودان كانوا من معتنقي الديانات القبلية . . . .

– يسمونهم «الأرواحيون» (Aminist)[1] .

---

(١) ديانة إفريقية محلية تقوم على تقديس أرواح الأجداد ، وعلى الاعتقاد بأن هذه الأرواح تستمر في الوجود بعد الموت ، ويمكنها أن تؤثر في حياة الأحياء . وتقترب هذه العقيدة من فكرة وحدة الكون التي تجمع الأحياء والأموات معاً . والأرواحيون يعتقدون ان لكل إنسان صورة وظلاً ونسمة . فالصورة كما تظهر في المرآة أو على وجه الماء ، والظل كما يبدو للأشجار والأشخاص ، والنسمة هي الروح . وعند الموت تصعد الروح إلى السماء أو إلى مكان خاص هو عالم الأرواح ، أما الظل فيبقى في منزل الميت حتى تنتهي مراسم الجنازة فيغادره ، لكن يظل هائماً حول المنزل ويتردد إليه بين الحين والآخر ، إلى أن يلتحق بالروح . ويعتقد الأرواحيون بالعبادة الطوطمية وتقديم القرابين الحيوانية .

● نعم . ثم تحولوا على أيدي المرسلين إلى المسيحية ، والمسيحيون هناك مسيحيون بالاسم لا بالفعل . وهؤلاء تعلموا العربية عندما بدأوا التعامل مع الشمال ، أو عند نزوحهم إلى الشمال ، أو عندما سيطر شمال السودان على جنوب السودان . وحتى يتعاملوا مع الدولة بدأوا يتكلمون العربية المكسّرة . ولكنهم في الأساس ليسوا عرباً ، ولا يعرّفون أنفسهم كعرب . لذلك لا أعتقد أن السودان مثال يحتذى في شأن مستقبل المسيحيين . وثمة مَن يقول : أُكلتُ يوم أُكل الثور الأبيض . ويعيدون الكلام على ظهور الإسلام الذي حافظ على اليهود ولم يحافظ على المسيحيين بالدرجة نفسها . وفي ما بعد ، حدثت الفتوحات وكانت مصر مليئة بالمسيحيين ، وبقيت كذلك إلى زمن المماليك ، الذي هو بداية التحول الكبير . والسبب أن دولة المماليك كانت دولة ناجحة اقتصادياً ، واجتذبت عناصر من جميع الجهات . وهذه العناصر كانت إسلامية بالدرجة الأولى . ثم جاءت الدولة العثمانية ، وفي الدولة العثمانية كانت المعاملات تجري بموجب الشرع . والشرع شرّع للوجود اليهودي والوجود المسيحي على أساس أن الإسلام هو الدولة ، والمسيحيون واليهود أهل كتاب . لكن المشرعين الدينيين دائماً يحبون أن يبرزوا سلطانهم على الآخرين . فما يسمى «الغيار» لم يكن يوماً كما وضعه الكهنة في الإسلام ، أي الفقهاء أمثال ابن تيمية وابن قيم الجوزية ، إلاّ في أوقات استثنائية كالحروب ضد الخارج[1] . وفي هذه الأزمات كان يتضح أن اليهود يقفون دائماً مع الإسلام . أما

---

(١) الغيار من المغايرة ، أي الاختلاف ، وهو ما كان يرتديه غير المسلمين من زنار أو حذاء أو غطاء رأس لتمييزهم من المسلمين .

المسيحيون فمن الممكن أن يكونوا مع الروم أو مع الفرنجة . الغريب أن المسلمين لم يعاتبوا المسيحيين عندما وقف قسم كبير منهم إلى جانب الفرنجة . أنا اشتغلت على الفترة التي كان الفرنجة في بلاد الشام مع التركيز على الموارنة ، ولم أجد في المصادر الفرنجية أي إشارة إلى معاقبة الموارنة ، لكن قد تجد كثيراً من الأخبار عن موارنة جاؤوا إلى الفرنجة وقدموا لهم استعدادهم لمناصرتهم ، مع أن لا أحد منهم كان ماهراً في السيف والقوس والنشّاب . ووجدت كثيراً من المصادر تتحدث عن مساعدة الموارنة للفرنجة ، ولكن لم أجد في المصادر الإسلامية أي إشارة إلى العتب على الموارنة . أرأيت؟ . مؤكد أن مؤرخي تلك الفترة رأوهم وهم يتعاونون مع الفرنجة . ولكني أعتقد أنهم كانوا يفترضون أن من الطبيعي أن يماشي الإنسان إخوانه في الدين ، فلا عتب عليه . بينما عندما انتهت الحروب التي أسموها الحروب الصليبية . . .

- أَليس الأصح أن نسميها حروب الفرنجة؟

● الفرنجة هو الأصح . وهذا ما كان يقوله ياسر عرفات ، ويبدو أنه شخص مثقف . إذاً ، عندما توقفت حروب الفرنجة لم يعاقب المسلمون الموارنة لأنهم تعاونوا مع الفرنجة ، بل وقع العتب على الشيعة ، وكان في الشام آنذاك فقيه أحيا المذهب الحنفي؟

- ابن تيمية .

● نعم . ابن تيمية . وما إن دخل المماليك بيروت حتى لم يبق من الفرنجة إلاّ القليل ممّن كانوا يتاجرون معهم ، وقد أبقوا على جماعة جنوى في جبيل حتى سنة ١٣٠٢ ميلادية ، مع أنهم أخرجوهم من عكا في سنة ١٢٩١ ، وكانت عكا آخر موقع لهم . وأرسل المماليك ابن تيمية إلى كسروان ليتحدث إلى زعماء الشيعة الاثني عشرية . هل

كان هناك شيعة من نوع آخر؟ لا أدري ، لأن لا مصادر في هذا الأمر . وأهل كسروان يقولون عنهم إنهم رافضة . والرافضة تطلق على الشيعة الاثني عشرية . جاء ابن تيمية وقال لشيعة كسروان : أنتم عملتم كذا وكذا ، وأنتم وقفتم إلى جانب الفرنجة ، وعندما جاء المغول وقفتم إلى جانبهم ، وفي عين جالوت كنتم معهم ، وفي أثناء عين جالوت كان الفرنجة ما زالوا في هذه البلاد ، وتحالفوا مع المغول . ووقعت بينهم مناقشات مسهبة لم يتوصلوا في نهايتها إلى أي تفاهم . وذهب ابن تيمية إلى دمشق وأعلن أن هؤلاء يحتاجون إلى حملة تأديبية . وسارت إليهم ثلاث حملات تأديبية ، الأولى سنة ١٢٩١ ميلادية ، والثانية سنة ١٣٠٠ ميلادية . الحملة الأولى حوكم قائدها وعزل وربما قتل بتهمة تلقيه الرشوة من الشيعة . الحملة الثانية فشلت لأن الجيش لم يكن كافياً ، ولم يستطع القيام بشيء . وفي الحملة الثالثة في سنة ١٣٠٥ جمع المماليك عساكرهم من جميع ممالك الشام في جيش عرمرم ، وتجمّع هذا الجيش في صوفر ، ونزل إلى وادي حمانا ، ثم صعد إلى كسروان الخارجة التي تقع بين رأس المتن وبرمانا ، ومن هناك إلى كسروان الداخلة واحتلوا هذه البلاد كلها وأحرقوها واقتلعوا أشجارها ، ولم يبقَ في معراب إلا حصن معراب . ويقول ابن القلاعي [1] ، الزجّال الماروني ، أنه لم يبق في معراب إلاّ عيون عميان وأجساد

(١) اسمه جبرائيل ابن القلاعي . ترأس الرهبنة الفرنسيسكانية في قبرص وعين مطراناً على موارنتها في سنة ١٥٠٧ ، وظل في هذا المنصب حتى وفاته في سنة ١٥١٦ . وقد كتب بالعامية رباعيات عنوانها «مديحة على جبل لبنان» مؤلفة من ٢٨٠ رباعية على وزن «القرّادي» .

تحترق . وهذا هو القصاص الذي أنزلوه بالشيعة[1] .

– والمسيحيون؟

● لم يتعرضوا لهم ، ولم يفعلوا بهم شيئاً . وسأروي لك ما يلي : في سنة ١٣٦٧ ، عُقد في فلورنسا مجمع دعا إليه البابا بناء على إلحاح امبراطور الروم ، بذريعة أن الأتراك باتوا على الأبواب ، وأن القسطنطينية ستسقط بين سنة أو أخرى . ووجدها البابا فرصة لجمع المسيحيين كلهم . وجاؤوا من الحبشة ، وكذلك جاء بطريرك الموارنة الذي ذهب ولم يفهم كلمة ؛ فأعضاء الوفد الماروني لا يعرفون اللاتينية . وكان هناك أحد رهبان الفرنسيسكان الذي أرسلته الكنيسة الرومانية ليرسخ علاقته بالموارنة . فقال له البطريرك : اذهب أنت ومثّلنا في المجمع ، وقل للبابا إن ما يُخيطه هو نلبسه نحن . لم تُعْرَف هذه الواقعة بالتفصيل ، ولكن بعض المسلمين اشتم ما يجري في فلورنسا . وأهل طرابلس

(١) في سنة ١٢٩١ جرد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حملته المشهورة على كسروان بعد أن تمكن من طرد الفرنجة نهائياً من المشرق العربي ، وفشلت هذه الحملة . وفي سنة ١٢٩٩ هاجم المغول بلاد الشام وانتصروا على جيش السلطان محمد بن قلاوون في حمص . وحين كانت فلول الجيش المملوكي تتراجع إلى جبل لبنان كان أهالي كسروان وأهالي جزين الشيعة يتعقبون الجنود ويلحقون بهم الأذى . فلما طرد المماليك المغول من الشام جردوا حملة جديدة على كسروان في سنة ١٣٠٠ وهزموا الشيعة ، ولكن ليس نهائياً . وجردوا حملة ثالثة في سنة ١٣٠٥ ، بدأت من عين صوفر ، ثم اجتاحوا كسروان وهجروا أهلها إلى البقاع وجزين . وكانت هذه الحملة بقيادة أقوش نائب دمشق . ومنذ ذلك الوقت بدأ نزوح الموارنة إلى كسروان ، ثم تمددوا ، بالتدريج ، إلى الشوف .

(والأهل هنا تعني الشعب) اعتقدوا أن الموارنة ذهبوا إلى فلورنسا ، وهم يريدون العودة بحملة صليبية جديدة . فهجموا على مركز البطريركية في ميفوق ، قرب البترون ، وأحرقوا عدداً من المنازل وقتلوا بعض الأشخاص . وخاف البطريرك فهرب إلى قنوبين في جبة بشري ، ولجأ إلى مقدّمي بشري الذين كان المماليك قد عينوهم ، وهم يعتمدون عليهم كثيراً ، وسلطتهم مستمدة من المماليك . وهكذا أصبح المماليك ، بطريقة غير مباشرة ، حماة البطريركية ، وانتهى الأمر . وكان هناك بطريرك يتمتع بسمعة سيئة وعلاقاته النسائية كانت على كل لسان . وحين شاعت حكاياته أقام الموارنة عليه دعوى لدى قاضي الشرع في طرابلس . ويقول ابن القلاعي : «أربعون نصراني شهدوا فيه وكفر الدين بما هو فيه» . وحوكم بموجب الشريعة الإسلامية ، وحرقوه .

– من المفروض أن يرجم . بل أن يجلد لأنه غير متزوج .

● أعتقد أنهم أحرقوه، أوشنقوه، أو خوزقوه، والأرجح أحرقوه. لكنه صار ، في ما بعد ، لدى الموارنة شهيداً .

– شهيد النساء .

● اسمه جبرائيل الحجولاوي[1] ، من حجولا . وهذه القصة من مدونات الموارنة . والحقيقة أن المماليك «تشتشوا» الموارنة ودللوهم كثيراً .

(١) اسمه جبرائيل الحجولاوي أو الحجولي نسبة إلى قرية حجولا . انتخب بطريركاً في سنة ١٣٥٧ . يقول ابن القلاعي إن فريقاً من اليعاقبة ذوي الأصل المارديني (٤٠ مارونياً) شهدوا زوراً ضده بالكفر والزنى أمام إحدى المحاكم الإسلامية ، فأحضر إلى جامع طيلان بطرابلس الشام وأعدم حرقاً في ١٣٦٧/٤/١ . وكان الطرابلسيون يسمونه «الشيخ مسعود» .

– بينما ضربوا الشيعة وشتتوهم من كسروان . وحتى اليوم ما زالت بقاياهم موجودة في كسروان ، فتجد اسماً على غرار مارون الحسيني مثلاً في كسروان .

● بيت الحسيني مسيحيون . نعم .

– أصلهم شيعة .

مؤكد أن بعضهم من أصول شيعية لأن آل الحسيني شيعة ، وهم من «السياد» ، وهؤلاء يعترفون بأن أولئك من أقربائهم . ولجأ بعض الشيعة إلى الرميلة وصاروا موارنة أو روم كاثوليك . المماليك دللوا الموارنة ، واضطهدوا الشيعة وبقايا الإسماعيلية . واستأصل الظاهر بيبرس الإسماعيلية وأخذهم إلى أسوان . أما العلويون فقد صادر المماليك قلاع الدعوة التابعة لهم ، كقلعة المرقب . إذاً ، كانت أحوال المسيحيين جيدة في عهد المماليك . ثم جاء العهد العثماني الذي كان حنوناً بدوره على المسيحيين . والمسيحيون كانوا فلاحين أو معّازة (رعيان ماعز) في الجرد . وأملاكهم معروفة ومسجّلة ويدفعون عنها الضرائب ، ولا يسببون المشكلات للدولة ، وكانوا ينصاعون للدولة دائماً ويخدمونها . بينما الشيعة ، وحتى بعض السنة ، كبّروا رؤوسهم على العثمانيين . والدكتور عبد الرحيم أبو حسين كتب مقالة طويلة وجميلة جداً عن ١٥٠ سنة من الثورة الدائمة للدروز على الدولة العثمانية . أما لدى المسيحيين فلم يحدث أي نوع من أنواع الثورات مثل ثورات الدروز أو تمرد الشيعة . لعلهم تمنوا النزول إلى كسروان بدلاً من بقائهم في أقصى شمال لبنان ، وأن يتمددوا إلى الشوف .

– حصل ذلك جراء التزايد السكاني .

● صحيح . وكان المسيحيون حينذاك يخلّفون كثيراً من الأبناء .

ثم إن الموارنة والمؤسسات الكاثوليكية والروم الكاثوليك توسعوا في مصالحهم إلى الشوف ومنطقة صيدا ، فصار لهم دير المخلص في الشوف ، ودير مشموشي في منطقة جزين ، وكانت لديهم أديرة تحولت إلى مراكز للنشاط الزراعي مثل إنتاج الحرير ، فضلاً عن زراعة الصنوبر التي كانت تدر أموالاً مجزية جراء بيع الحطب والصنوبر و«الكنافش» التي تستعمل في التدفئة . وهنا كان مشايخ الدروز يشجعون المسيحيين على المجيء إلى مناطقهم . كان وضعهم جيداً ولم يكبروا رأسهم ويجلبوا الويلات على أنفسهم إلاّ في القرن التاسع عشر . فقد أرادوا أن يحكموا كياناً لم يكن قد ظهر بعد ، أي لبنان . وهم في سبيل ذلك داسوا أقدام الدروز ، فقام الدروز عليهم وذبحوهم في سنة ١٨٦٠ . وعلى الفور جاء الفرنسيون وجاءت الدول الأخرى حتى لا يستفرد الفرنسيون وحدهم بالمنطقة ، وركبوا ما عرف بـ «المتصرفية» تحت مظلة الدولة العثمانية . إذاً ، حالتهم لم تكن تستدعي البكاء ، وما كانت تفتت الجماد . حدثت قبل ذلك هجرة مارونية إلى قبرص . ففي أواخر حروب الفرنجة سئم فريق من موارنة الفقر في جبل لبنان ، ورأى أن من الأفضل له أن ينتقل إلى فقر قبرص . وهؤلاء مهمون لأنهم ما زالوا ، حتى اليوم ، محافظين على اللهجة المارونية . ووجود هؤلاء في قبرص يكذّب القول إن الموارنة كانوا يتكلمون السريانية ، فموارنة قبرص يتكلمون العربية مع بعض التعديل كما في العبرية ، فيقولون : صارت الحياة عالية عالية أي غالية . أو : هل بدك تروح تقشع الكنيسة ، أي رؤية الكنيسة . وهم يتحدثون بالقاف .

– مثل أهل الجبل الدروز اليوم؟

● كلنا كنا نلفظ القاف المفخمة في كلامنا .

المسيحيون والهجرة

– ما مشكلة المسيحيين العرب اليوم؟

● بدأت الهجرة في القرن التاسع عشر حين فُتح باب البحر وأصبح السفر سهلاً ، وصارت البواخر تأتي إلى بيروت . في البداية كانت البواخر صغيرة ثم راحت تكبر بالتدريج ، وصار اللبناني يقفز إلى الباخرة ليختبىء فيها . وفي أثناء الإبحار يظهر وينزل في أول ميناء ويحاول أن يجد باخرة أخرى متجهة إلى مكان ما يتصور أنه مفروش بالذهب . وهكذا بدأ المسيحيون يهاجرون . والغريب أن أكثر من هاجر هم المسيحيون الذين كانت أحوالهم أفضل من أحوال الآخرين . الهجرة الأولى كانت مسيحية . وكان هناك بعض الدروز ممن هاجر أيضاً ، ولكن الأغلبية كانت من المسيحيين . أما لماذا هاجروا فأنا أعتقد أنهم فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعرفون أكثر من غيرهم ، وسمعوا عن أمور لم يسمع عنها غيرهم . ثم إن لديهم ثقة بأنفسهم أكثر من غيرهم . ربما لأن السنّي أو الشيعي أو الدرزي كان يقول : إذا ذهبت ماذا سأعمل ، فأنا لا أتكلم لغتهم . أما أولئك المسيحيون فليس لأنهم متعلمون أكثر ، ولكن لأنهم متعلمون قليلاً ، ويغامرون كثيراً . في عائلتنا مثلاً كان والدي واحداً من أحد عشر ولداً بقي منهم تسعة في قيد الحياة . وقد هاجر ، وإن كانت هجرته ليست هجرة حقيقية . سافر إلى مصر ، وصار مصرياً . ثم عاد إلى لبنان وتخلّى عن الجنسية المصرية وأصبح لبنانياً .

وكان لدى والدي أَخَوان بقيا في قيد الحياة . بينما الباقون ماتوا أطفالاً . أحد هذين الأخوين يدعى وديع ، ما كان في إمكانه أن يفلح في العلم ، فذهب «هريبة» من دون إبلاغ أهله . قفز إلى باخرة خلسة ، ولم يعرف عنه شيئاً إلاّ في ما بعد ، وتزوج امرأة من زحلة في المهجر لم نكن نعرف عنها شيئاً . كانت جيدة ، فقد التقيتها وتعرفت إليها . والدي تعلّم ونال شهادة الطب ، وأخوه سليم التحق بالجامعة ليتعلم الصيدلة . لكن الرقص الإفرنجي استهواه حتى الهوس ، وبات ينال الجوائز ، ولا أدري كيف كان الرقص في تلك الأيام . وعندما ذهب والدي إلى مصر لحقه عمي . ويقول لي والدي إنه كان يعيش بهدوء ، ولم يتزوج إلاّ في الثالثة والأربعين . وكانت لوالدي عصا ذات قبضة من العاج والذهب . وفي أحد الأيام تلقى برقية يقول له فيها عمي : sorry لقد سرقت عصاك وبعتها حتى أتمكن من الهجرة إلى نيويورك . أما والدي فلطيبة قلبه استمر في دفع أقساط الدراسة لشقيقه . ولعله كان الوحيد الذي كان هنا ويدفع إلى مَن هناك ، أي في الخارج .

هذا مثال على أحوال العائلات . وهناك واحدة من أخوات والدي (عمتي) تزوجت ابن جدي أبو عبد الله . وخلّفت أحد عشر ولداً بقي منهم تسعة . وجميع عائلتها هاجرت ، وبعض هؤلاء ، عندما قرروا الهجرة ، باعوا والدي أرضهم ، حتى أولاد عمتي فعلوا الأمر نفسه ، وإن كان ذلك وقع في وقت متأخر . وعمتي التي تليه بالتراتبية العائلية تزوجت في حاصبيا وذهبت هي وزوجها مباشرة إلى البرازيل . ولها الآن حفيد في البرازيل يكتب في السياسة البرازيلية ، ولدي كتاب من مؤلفاته أهداني إياه . بقيت لوالدي أخت عاشت هنا طوال حياتها . وكان لديها بنات تزوجن في لبنان ، وعشن جميعاً هنا . أما أخته

الصغيرة سليمة فقد تزوجت شاباً من بحمدون ورزقت صبياً وبنتاً . بعد الحرب العالمية الأولى جمعت عائلتها أغراضها ، وباعت البيت وهاجرت إلى أميركا . وجميع من ذهب من عائلتي إلى أميركا استقر في ساوث كارولينا . وعندما تذهب إلى ساوث كارولينا ستجد صليبية كثراً . ولكن عندما تنظر إليهم ترَ أن هيئاتهم مثلنا ، لكنهم لا يتكلمون العربية . هذه قصة عائلة التي لم يكن هناك داع لديها لمغادرة البلاد . فهم لم يهاجروا بسبب الاضطهاد ، ولا بسبب سفر برلك ، ولا لأي سبب آخر . هاجروا لأنهم اعتقدوا أنهم سيجدون ثروات في الغرب .

- أو لتحسين أحوالهم المادية .

● أحوالهم المادية كانت جيدة هنا في لبنان . والأمر نفسه ينطبق على أقربائنا الذين تربينا معاً في بحمدون . سأعطيك مثالاً آخر : نشأنا مع أقارب لنا في بحمدون ، ولكن بعض أعمامهم ذهب إلى إفريقيا وبعضهم إلى البرازيل . ومَن يذهب اليوم إلى أميركا ، ويرصد نتائج الهجرة التي حدثت في القرن التاسع عشر لا يجد أن أحفاد هؤلاء المهاجرين أحسن أحوالاً من أقربائهم الذين ظلوا هنا ، بل ربما يجدها أسوأ . الذين بقوا هنا عاشوا حياة كريمة . هذه الهجرة لم تحدث لأسباب سياسية ، أو جراء الاضطهاد ، وليس لأن المسيحيين ما عادوا يجدون مكاناً لهم في هذه البلاد ، وليس لأن الدولة العثمانية «طفّشتهم» ، ولا ننسى أن الفرنسيين جاؤوا بعد العثمانيين وقدموا لبنان كله كدولة إلى المسيحيين ، ومع ذلك استمروا في الهجرة . ثم اخترعوا «ميثولوجيا» تقول إن هذه البلاد ما عادت لهم . حسناً ، أنتم كنتم حاكمين ، وكنتم «تلبطون» الناس ، ومن كان يريد القيام بأي شيء في لبنان ، كان عليه أن يركض وراءكم ، ومع ذلك صنعتم خرافة

تقول : علينا تدبر أحوالنا والحصول على جنسية أخرى . إذاً ، نهاجر ونحصل على جنسية ، ثم نعود ، ونعيش في لبنان . وعندما «يدق الكوز بالجرة» نحمل جنسيتنا بيد وأمتعتنا بيد ونرحل .

– متى ظهرت هذه الميثولوجيا؟

● قبل الاستقلال . وهي ، في أي حال ، موجودة منذ زمن بعيد . وأنا أتذكر ذلك منذ الطفولة . والدي كان جبلياً قحاً ومزروعاً في هذه البلاد . أحياناً كان يتكلم باللهجة المصرية ، لكنه عندما يتكلم العربية يمكنك أن تدون كلامه وأن تنشره مباشرة لأنه يتكلم العربية الفصحى بطلاقة مثل عربية أهل بعقلين . وفي إحدى المرات وصلنا العدد الجديد من مجلة National Geographic وكان مكرساً لكندا ، فقال لنا : ما قولكم في الذهاب إلى كندا؟ لم تعجبني الفكرة ، ولكن لم أقل شيئاً لأنني كنت قاصراً . أمي قالت له : أنا لن أهاجر . لقد تركنا مصر وأتينا إلى لبنان وصار لدينا بيت وقد فرشناه بالأثاث الجميل . لا أريد الذهاب . إخوتي الكبار كانوا قد باتوا شباناً ولديهم صديقات (Girlfriends) في الضيعة ، فرفضوا الهجرة . فعدل والدي عن الفكرة . ولكن الفكرة ، بحد ذاتها ، راودته . وهنا أود أن أقول إن إخوتي الثلاثة الكبار الذين عاشوا في سعة من العيش هاجروا لاحقاً . أما الذين لم يعيشوا في العز من أبنائه الصغار ، ومنهم أنا ، لأن أحوال والدي بعد الحرب العالمية الثانية ما عادت كما كانت ، مع أنها ظلت مقبولة ، فلم نطلب شيئاً طول حياتنا . كنا نتعلم أينما شئنا ، لكننا لم نعش لوردات ، ونحن ثلاثتنا رفضنا الالتحاق بإخوتي في أميركا .

– المسيحيون في فلسطين خضعوا لهجرة طبيعية معتادة ، مع أن فلسطين حالة خاصة . والعراق اليوم حالة مختلفة بسبب الحرب ،

مع أن المسيحيين العراقيين ، على العموم ، لا يهاجرون . الآن بدأت الأمور تتغير ، وهجرة المسيحيين من فلسطين والعراق خطيرة جداً .

● أنا التقيت مسيحيين من فلسطين في عمان . وكان لديهم شعور بأن الدولة الإسرائيلية تُفضّل المسلمين عليهم . هذا لا يعني أن على المسيحيين أن يهاجروا . وهذا الوضع «مما يزهّدني بأرض أندلس» . يقولون إن فلسطين لم تشهد فارقاً بين المسيحيين والمسلمين . لكن عندما تقرأ مذكرات نقولا زيادة ، حين كان تلميذاً في إحدى المدارس ، كيف كان المسلمون «يستوطون حيطه»[1] . الآن ظهرت الحركات السلفية واتسعت . ولم يكن الأمر في فلسطين على هذا النحو . فعندما انطلقت الثورة الفلسطينية صنعت تلاحماً وطنياً جميلاً جداً في صفوف الشعب ، وأنا رأيت ذلك في الجامعة الأميركية . الجميع صار في موقف موحد . وإذا اختلفوا اختلفوا على نظريات . هذا ماوي وهذا نصف ماوي وهذا ربع ماوي . وكان المسيحيون قادة وفاعلين في الثورة الفلسطينية .

– أمثال جورج حبش ووديع حداد وكمال ناصر ونايف حواتمة والأب إبراهيم عياد وغيرهم كثيرون .

● سورية لم تعرف اضطهاد المسيحيين . المسيحيون أقلية في سوريا ، لكنهم محترمون ، ويعرفون كيفية التصرف السياسي دائماً . والحكم السوري كان لائقاً معهم .

– نتذكر في سورية فارس الخوري وحنين صحناوي وليون زمريا وخليل كلاس وطعمة العودة الله وسهيل الخوري وكوليت الخوري

---

(١) راجع : نقولا زيادة ، أيامي : سيرة ذاتية (جزآن) ، لندن : هزار بابلشينغ ليمتد ، ١٩٩٢ .

وميخائيل ليان وغيرهم[1] .

● أما العراق فأعتقد أن الهجرة كانت موجودة دائماً . وكانت هناك هجرة دائمة من مصر . ملايين الناس ترحل لتحسين الأوضاع . القبطي يذهب إلى أميركا ليعمل ، فإذا به يجد نفسه وهو يُعلّم العربية أو يكتب في الشؤون المصرية . وبالتدريج يجد هذا القبطي نفسه منخرطاً مع Under Ground قبطي لا يعرف ما هي علاقاته السياسية المحلية .

(١) كان للمسيحيين شأن كبير في تاريخ سورية الحديث . وعلى سبيل المثال فإن أول حكومة سورية في عهد الملك فيصل ضمت عدداً من المسيحيين أمثال : اسكندر عمون (وزير العدلية ، وهو من دير القمر) ، وسعيد شقير (وزير المالية وهو من الشويفات) ، وتوفيق شامية (وزير الخارجية وهو من دمشق) ، علاوة على جبرائيل حداد (مدير الأمن العام وهو من طرابلس) . وكانت محكمة الاستئناف المدنية في إحدى المراحل ، وهي المحكمة التي تطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، مؤلفة من ثلاثة قضاة كلهم مسيحيون هم : نجيب الأميوني من حاصبيا رئيساً ، وأسعد أبو شعر من دمشق عضواً ، وفايز الخوري من الكفير (وأصله من عين حليا) عضواً (أنظر : حسن الأمين ، حل وترحال ، بيروت : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٩١) . ومن أبرز الضباط المسيحيين في الجيش السوري ، وخصوصاً في مرحلة ما بعد الاستقلال اللواء وديع مقعبري ، اللواء فيليب صوايا ، اللواء باسيل صوايا ، اللواء ميخائيل ورد ، اللواء يوسف شكور ، اللواء ألبير عرنوق ، العميد جودت جورج ، العميد آرام كرمانوكيان (قائد المدفعية) ، العميد سمير جبور ، العقيد وديع بشور ، العقيد بهيج كلاس ، العقيد انطوان البستاني (لبناني الأصل) ، المقدم عبد المسيح الداعوم ، علاوة على ضباط كثيرين من الرتب العالية أمثال جورج عوض وجوزف بيرميان وألبير كيلاجيان والياس بيطار وآخرين .

وهؤلاء ديدنهم هو الكلام على المسلمين في مصر واضطهادهم الأقباط . والأقباط في مصر يتأثرون بالكلام الوارد من الخارج ، فعقولهم في رؤوس طرابيشهم . وعلاوة على ذلك ، أنا مقتنع مئة بالمئة بوجود تدخل خارجي في هذا الشأن . وهذا التدخل يغذي التمييز الموجود حقيقة في مصر . نعم ، هناك تمييز وقلّة حياء وقوانين يجب تغييرها . فلدى الأقباط إمكانات عظيمة في مصر يجب ألا تذهب هباء . أما في العراق فالهجرة فيه قديمة . والهجرة اليوم سببها الاحتلال الأميركي ووجود الإيرانيين وحركات العنف المذهبية . ومهما يكن أمر مسيحيي العراق ، فهؤلاء هم مسيحيو الحيرة ، وأحفاد المناذرة . وهم من قضاعة وبني تغلب . وهؤلاء كانوا أبطالنا مثل هند بنت النعمان . وكثير من أبطال الإسلام هم من مسيحيي العراق . فلماذا يجري هذا في ديارهم الآن؟ لا أدري تماماً ، ولكن ما يجري ليس بريئاً على الإطلاق[1] .

(١) تقع الحيرة على مبعدة ثلاثة أميال من الكوفة جنوباً ، وهي اليوم خربة . وقد بدأ خرابها بعد تأسيس الكوفة في سنة ١٧ هجرية أو ٦٣٨ ميلادية . والحقيقة أن المسيحية كانت منتشرة في البقعة الممتدة بين الرصافة ومعان ، وبين دمشق والحيرة ، أو ما يعرف باسم «بلاد الشام» أو سوريا التاريخية . وكذلك انتشرت المسيحية في جنوب الجزيرة العربية ولا سيما في نجران وظفار وعدن . وكانت العقبة (أيلة) نصرانية ، وكذلك دومة الجندل وتيماء وتبوك ووادى القرى ويثرب . وكانت المسيحية موجودة في قريش وتنوخ وحمير وتغلب وغسان وبهراء وسليح ولخم وكلب وإياد وبكر وعجل وشيبان وطي وتميم وكندة والحارث وعبد قيس وربيعة وقضاعة ومذحج وعاملة وجذام . وكبار مؤسسي المسيحية هم سوريون ؛ فالمسيح سوري آرامي من الجليل الفلسطيني ، وبولس من طرسوس ، وتتيان سوري ، ويوستين نابلسي ، وبارديصان سوري ، ويوحنا فم الذهب أنطاكي ، ونسطوريوس أنطاكي أيضاً .

خلاصة تجربة وعصارة حياة

- ما خلاصة تجربتك كإنسان عاش في لبنان في مرحلة الازدهار، وفي عصر الناصرية وظهور حركات التحرر الوطني واليسار، ثم راقبت العنف الطائفي الذي روّع اللبنانيين، وها أنت الآن ترصد معالم الانجراف نحو هوس التديّن؟

● أستطيع القول إنني لم أنجرف طول حياتي في تيار ديني أو في تيار سياسي. أحب لبنان، وهذا أمر طبيعي. ودائماً كنت أشعر بأن انتقاد لبنان مع «القرصة» ليس في مكانه. أكيد أن هناك مَن هو أفضل منا كلبنانيين، لكننا أحسن من غيرنا في أمور كثيرة. وأنا لم أقل في حياتي إننا أحسن من غيرنا. لقد تربينا نحن والسوريون معاً. وكذلك مع الفلسطينيين، وما زالت العلاقات الطيبة والمتينة تربطني بهم بقوة. ولا أستطيع أن أتصور نفسي من دون أصحابي غير اللبنانيين، على الرغم من خريطة سان ريمو التي قسّمت بلادنا إلى تقسيمات عجيبة. والغريب في الأمر أن شعب بلادنا استوعب هذه التقسيمات إلى درجة صارت مقدّسة لديه، وهو كاذب عندما يقول العكس. وأود أن أشير إلى ذلك بالتساؤل: لماذا استاء اللبنانيون من تصرفات الثورة الفلسطينية؟ ولماذا استاء المسيحيون أكثر من غيرهم؟ السبب أن غيرهم حاول استخدام الفلسطينيين ضد المسيحيين. ولكن أخيراً لا يصح إلاّ

الصحيح . وأعتقد أن الموضوع الآن صار مستهلكاً . وربما تصبح هذه الموضوعات كلها مستهلكة يوماً ما . المهم أن تبقى الناس لبعضها ومع بعضها . وهذه البلاد جميلة ، وفيها عقل . لكن العقل فيها يحتاج إلى صقل (بردخة) وإلى القليل من العلمنة . أنا تربيت تربية بروتستانتية ، وهي في ذاتها مفعمة بالعلمانية . ولا أعتقد مع هذا أنني مسيحي أكثر من غيري .

– المشكلة في الجماعات السلفية الجديدة هو اعتقادها أن الدين عند الله الإسلام . وهذا يؤدي إلى العنصرية الدينية وتسلط هذه الجماعات على الجماعات الأخرى كالعلمانيين ، وأنت منهم .

● الإيمان في القرآن هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح والعبادات .

– أي القيام بالفرائض .

● كل مجتمع يمارس هذه العبادات هو مجتمع إسلامي . والمسلمون الذين كتابهم الأساس هو القرآن ، هم مؤمنون . أما الباقون فأهل كتاب . السلفيات الجديدة بلوى من البلاوي ومن قلة الفهم . أنا كنت في الأردن طول عشر سنوات مع الأمير الحسن بن طلال . وكانت «شغلتي وعملتي» شرح الإسلام للعالم ، وللمسلمين أيضاً . ويمكنك الاطلاع على هذا الجهد على الموقع الإلكتروني الذي يعمل تحت هذا السؤال : what do you wish to know about Islam? . وكانت الأسئلة تأتينا من المسلمين وغير المسلمين ، ونحن نجيب برسائل إلكترونية . وقد تعلمت الكثير في أثناء عملي . جميع الناس مثلاً يعرفون أن الإسلام لا يعني المحمدية . وبحسب القرآن فإن عيسى بن مريم كان مسلماً . ونوح كان مسلماً . وآدم كان مسلماً . وموسى كان

مسلماً . وجميع الديانات التي تنتسب إلى إبراهيم مسلمة .

– ما الذي لم تقله حتى الآن؟ ولماذا لم تقله؟

● أعتقد أنني قلت كل شيء . ربما أغير تفكيري . لا أدري . ربما ينزل عليّ الروح القدس .

– في هذه الأيام لا ينزل الروح القدس على أحد .

● لكنني أعتقد أنني لم أكذب في حياتي .

– أنا متأكد من ذلك . غير أنني أعيد السؤال عما لم تقله فكرياً وتاريخياً .

● كل ما فكرت فيه ، وتوصلت إلى نتائج في شأنه قلته . لم أخبّىء شيئاً . وهذا أمر أراحني نفسياً . وأنا لم أخاطب ، في مؤلفاتي ، المؤرخ ، بل خاطبت الإنسان العادي . وكل ما قمت به هو مخاطبة الإنسان العادي ، أَكان ذلك بالإنكليزية أم بالعربية . وقد سهّلت لغتي وطوّعتها حتى تصل إلى أبسط إنسان في طريقة تفكيره . ثم إنني ابتعدت عن التفلسف . لا أحب الفلسفة . لذا ليس بالضرورة أن أكون «مبسوطاً» كثيراً في هذه الأيام ، ولكني لست زعلاناً . عندي الآن كتاب صدر حديثاً بالعربية عنوانه Syria Under Islam: The First Centuries ، أي من الفتح العربي إلى حروب الفرنجة ، وهو يغطي نحو ستة قرون . ويبدو أن ليس لدي الوقت الكافي لأكمل هذا العمل كي يغطي تاريخ بلاد الشام حتى نهاية العهد العثماني . وإذا أنجدتني الأيام لن أتأخر في إنجاز هذا الكتاب الذي يحتاج إلى وقت وإلى قراءات ، علماً أنني غير مغرم بوضع الحواشي (Footnotes) . ما يضعه الآخرون في الحواشي أضعه أنا في المتن . ثم لندع القارىء إذا كانت لديه ثقة بي أن يقبل هذه الطريقة . أما إذا لم تكن لديه ثقة بي فلا

ينفع الأمر إذا وضعت الحواشي في النص أو في أي مكان آخر . والقارىء العربي كان أكثر من أحببته ، لأن القارىء العربي آدمي .

- ربما لا يحق لي أن أمتدحك مباشرة ، لكن أود أن أقول إنك من القلائل الذين غيروا أفكاري بنظريتك الاستثنائية والفريدة عن التوراة التي جاءت من جزيرة العرب ، والتي ما برحت ، حتى الآن ، تتأكد أكثر فأكثر . كثيرون تفلسفوا ولم يغيروا شيئاً ، بينما أنت ، وفي كتاب واحد ، جعلت أفكارنا الراسخة غير راسخة على الإطلاق ، وجعلتنا ننقلب رأساً على عقب ، ونفكر بطريقة جديدة . وهذا الجهد العظيم هو إرث كبير لك ولنا بالتأكيد .

كمال الصليبي: الحكاية النادرة

❋ ولد كمال الصليبي في بيروت في ١٩٢٩/٥/٢ ، ونشأ في بحمدون . والصليبي نسبة إلى عيد الصليب الذي يقع في ١٤ أيلول من كل سنة ، والذي يعتبره أهل الشام الفاصل بين الصيف والخريف .

❋ أصل عائلته من بلدة عين حليا الواقعة بين الزبداني وسرغايا في الأراضي السورية .

❋ جده لأمه إبراهيم الصليبي درس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت ، وكان مناصراً لنظرية داروين في النشوء والارتقاء . وفي سنة ١٨٨٢ اندلعت الخلافات بين إدارة الجامعة التي كانت تناهض نظرية داروين ، والأساتذة والطلاب المؤيدين لهذه النظرية ، فطردت الإدارة بعض الأساتذة والطلاب ومنهم إبراهيم الصليبي الذي سافر إلى اسطنبول ، ونال شهادة الطب من إحدى جامعاتها ، ثم انتقل إلى الخليل في فلسطين ليعمل طبيباً فيها ، وفي ما بعد انتقل إلى السلط ، وتزوج سارة بنت القس صليبا جروان وولدت له ، في ما ولدت ، بنتاً اسمها سلوى التي صارت أم كمال الصليبي .

❋ جده لوالده هو خليل الصليبي ، كان معلماً في مدرسة المختارة في الشوف ، وتزوج فتاة تدعى وردة ، فأنجبت له ، في ما أنجبت ، سليمان (والد كمال) الذي ولد في المختارة ، ودرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت ، وتخرج طبيباً في سنة ١٩٠٤ ، ثم ارتحل إلى مصر وعمل في الجيش المصري ، وخدم في السودان .

وقد تزوج سليمان الصليبي سلوى بنت إبراهيم الصليبي ، أي والدة الدكتور كمال الصليبي .

* حمل سليمان الصليبي الجنسية المصرية ، وسجّل ابنه كمال في سجلات القنصلية المصرية في بيروت عند ولادته . لكن ، في سنة ١٩٣٩ استرجع والد كمال الجنسية اللبنانية .
* درس المرحلة الابتدائية في مدرسة بنتون الأميركية الإنجيلية التي أسسها المبشر وليم بنتون William Benton سنة ١٩٢٠ ، وتخرج فيها سنة ١٩٤١ . وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة برمانا العالية ، وكان من أصدقائه المقربين في مدرسة برمانا حسن جمال الحسيني من القدس ، وجميل السروجي من الناصرة . ثم انتقل إلى ثانوية IC في بيروت ، وفيها ربطته صلات وثيقة بيوسف إيبش من دمشق ، ويوسف الشيراوي من البحرين ، وأحمد الخطيب من الكويت .
* تخرج في الجامعة الأميركية سنة ١٩٥٠ ، وكان من أساتذته أنيس فريحة وقسطنطين زريق ونبيه أمين فارس .
* سافر إلى لندن ، ودرس في كلية الدراسات الشرقية على المؤرخ المعروف برنارد لويس . ويقول عن اختياره التاريخ لدراسته العالية ما يلي : عندما أنهيت دراستي الثانوية طلبت النصح من والدي ليدلني على موضوع أتخصص فيه ، فسألني هل لدي ميل إلى الطب أو طب الأسنان أو الصيدلة أو الهندسة ، فأجبته بالنفي . فقال لي : إذاً أدرس ما شئت . وكان لدي ميل في أثناء دراستي المرحلتين الابتدائية والثانوية ، إلى علم البيولوجيا ، ثم ملتُ إلى الرياضيات وعلم الفلك ، ثم صار لدي اهتمام بالآداب الأوروبية ، وبعد ذلك قررت التخصص في العلوم السياسية ، وهذا ما قادني

إلى دراسة التاريخ ، مع العلم أن الدرجات التي كنت أنالها في مادة التاريخ كانت أضعف الدرجات . وأظن أن الذي جذبني إلى دراسة التاريخ هم أساتذة التاريخ في الجامعة الأميركية أمثال نبيه أمين فارس (مواليد الناصرة سنة ١٩٠٦) ، وقسطنطين زريق (مواليد دمشق سنة ١٩٠٩) ، وأنيس فريحة (مواليد رأس المتن سنة ١٩٠٢) ، وزين نور الدين زين (مواليد عكا سنة ١٩٠٨) . وإبان دراستي الثانوية شُغفت بالعلوم الطبيعية وعلم الفلك ، وقرأت الكتب الطبية الجامعية التي كان والدي يحتفظ بها . وكنت درست الموسيقى وأنا في الخامسة على أخي سامي في البداية ، ثم في المعهد الموسيقي الوطني (الكونسرفتوار) ، وكان أستاذي في المعهد وديع صبرا (ملحن النشيد الوطني اللبناني) ، ثم تابعت دراستي الموسيقية في الأكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة مع ألكسي بطرس (مواليد بيروت ١٩١١) . وقد تعلمت العزف ولم أتقنه (راجع مجلة «المقاصد» ، العدد ٣٩ ، تموز ١٩٨٥) .

* عين أستاذاً في الجامعة الأميركية ، وتدرج في مناصبه الأكاديمية حتى صار رئيساً لدائرة التاريخ فيها .
* أثار موجة عاتية من السجال حين أصدر «التوراة جاءت من جزيرة العرب» في سنة ١٩٨٦ .
* اضطر إلى مغادرة لبنان إلى الأردن سنة ١٩٨٦ في خضم حروب الشوارع التي شهدتها بيروت بين الميليشيات المتصارعة . وفي الأردن أكب على دراسة اللغة اليونانية كي يتمكن من إعادة دراسة العهد الجديد (الأناجيل) بالطريقة التي عالج بها التوراة ، فكان كتابه «البحث عن يسوع» .

* عاد إلى بيروت في سنة ١٩٨٨ وعاود التدريس في الجامعة الأميركية .
* أسس «المعهد الملكي للدراسات الدينية» في عمان سنة ١٩٩٥ .
* تقاعد من التدريس في سنة ١٩٩٧ .
* عاد إلى لبنان نهائياً في سنة ١٩٩٧ ، وأمضى بقية سنوات عمره في رأس بيروت حتى وفاته في سنة ٢٠١١ .

مؤلفاته

* **المؤرخون الموارنة وتاريخ لبنان في العصور الوسطى** (١٩٥٩) .
* **تاريخ لبنان الحديث** (بالانكليزية ١٩٦٥ وبالعربية ١٩٦٨) .
* **مفترق الطرق إلى الحرب الأهلية** (١٩٧٦) .
* **سوريا تحت الإسلام** (بالإنكليزية ١٩٧٧ وبالعربية ٢٠١١) .
* **بلاد الشام في العصور الإسلامية الأولى** (بالانكليزية ١٩٧٧ وبالعربية ٢٠١١) .
* **منطلق تاريخ لبنان** (١٩٧٩) .
* **تاريخ الجزيرة العربية** (بالإنكليزية ١٩٨٠) .
* **التوراة جاءت من جزيرة العرب** (بالإنكليزية ١٩٨٥ وبالعربية ١٩٨٦) .
* **خفايات التوراة وأسرار شعب إسرائيل** (١٩٨٨) .
* **بيت بمنازل كثيرة** (١٩٩٠) .
* **حروب داود** (١٩٩٠) .
* **تاريخ الأردن الحديث** (بالإنكليزية ١٩٩٣) .
* **البحث عن يسوع** (١٩٩٩) .

* **طائر على سنديانة** (٢٠٠٢) .
* **عودة إلى «التوراة جاءت من جزيرة العرب»** (٢٠٠٨) .
* **بيروت والزمن** (٢٠٠٩) .
* **الموارنة : صورة تاريخية** (٢٠١١) .

THE WISE HERETIC
KAMAL SALIBI

حوارات
INTERVIEWS

الهرطوقيّ الحكيم

هذا الحوار مثير للجدل أيّما إثارة، وهو يستدرج مساجلات تاريخيّة وفكريّة صاخبة في الموضوعات المفاجئة الّتي أثارها كمال الصليبي هنا، والّتي تثير بدورها حميّة العلم لدى كثيرين، أو حنق أصحاب العقائد وهم كثيرون أيضًا. فهو يفرّق اليهوديّة عن بني إسرائيل، ويقول إنّ المسيح لم يكن يهوديًّا، وإنّ المسيحيّة دين إسرائيليّ، وإنّ هناك ثلاثة «يواسيع»: عيسى بن مريم، ويسوع المطالِب بعرش داود (وهو الّذي صلب في القدس)، وإله العيس؛ ويقول إنّ مريم ليست والدة المسيح بل هي خالته، أمّا مريم المذكورة في القرآن فهي امرأة كاهنة، وينفي كمال الصليبي، في هذا الحوار، أيّ وجود للأمير فخر الدين المعنيّ لأنّه شخصيّة خرافيّة، ويوضّح أنّ فخر الدين معن كان مجرّد جابٍ للضرائب، وأنّ كلمة «أمير» ليست لقبًا بل هي رتبة عسكريّة «أميرالاي». ويعتقد كمال الصليبي أنّ لبنان هو مشروع تجاريّ رسمه كاثوليك دمشق وتجّارها، وأن لا شيء يربط لبنان بالفينيقيّين. ويفصح الصليبي عن أنّه لا يحبّ الغرب ولا الديمقراطيّة أيضًا. ومن النتائج الّتي خلص إليها أنّ المتنبّي كان «كيسانيًّا» على الأرجح، ويصفه بأنّه طويل اللسان، ولولا كافور الإخشيديّ لما بقي الإسلام السنيّ قائمًا. ويتعقّب كثيرًا من الحكايات الشائعة في التاريخ اللبنانيّ مثل عادة «التفخيت» لدى آل الخازن في كسروان، أي مضاجعة العروس في ليلة العرس قبل عريسها، ويرى في طانيوس شاهين مجرّد شابّ متوحّش وجبان وصاحب «بهورة»، ويرى أنّ هجرة المسيحيّين من لبنان، بعد سنة ١٨٦٠، لم تكن جرّاء الاضطهاد أو الفقر، بل لأسباب يعرضها هنا في هذا الحوار المثير حقًّا، إلى جانب قضايا فكريّة وسياسيّة متشعّبة، مثل قوله إنّ كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» غير مهمّ، واعتباره القول بوجود لبنان متواصل منذ ستّة آلاف عام مجرّد خرافة.

◆



